أميرة الجبل

رواية

الدكتور نجيب الكيلاني

دار ابن حزم

صدر للمؤلف عن دار ابن حزم

- مدخل إلى الأدب الإسلامي
- تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية
- نحو مسرح إسلامي
- عمر يظهر في القدس ـ رواية (مترجم للإنكليزية).
- ملكة العنب ـ رواية.
- محاكمة الأسود العنسي ـ مسرحية.
- الوجه المظلم للقمر ـ مسرحية.
- أميرة الجبل ـ رواية.

الدكتور نجيب الكيلاني

أميرة الجبل

رواية

أول رواية تجري أحداثها بين قبائل جبال الشحوح في الخليج العربي

دار ابن حزم

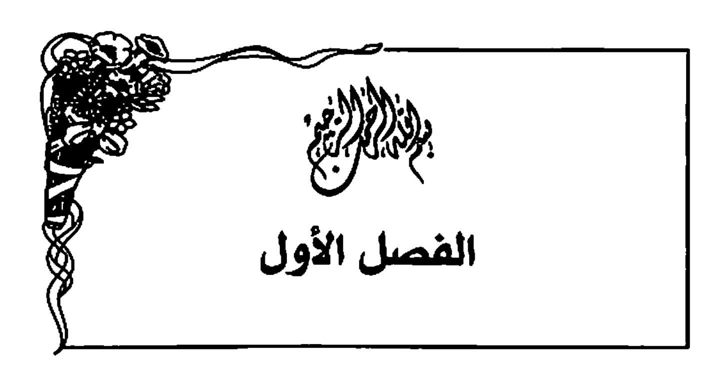


الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون : ٧٠١٩٧٤



الفصل الأول

.... الريح تعصف في الخارج، وعبر زجاج النافذة أستطيع أن أرى مياه الخليج الزرقاء، وهي تزبد وتتوج سلاسل الأمواج بذلك الزبد الأبيض، وذرات الرمال تضرب الزجاج وتصطدم بهيكل مكيف الهواء، فينبعث منها صوت فرقعة نحيلة، والبرد شديد على غير العادة، والسماء قد تزاحمت فيها السحب التي تنذر بالمطر، وأنا أجلس في مكتبي منكمشاً على نفسي بكامل ثيابي الصوفية الثقيلة، لم أستطع أن أخلع سترتي لألبس ردائي الأبيض الخاص بالمستشفى، فقد آثرت الدفء والانطواء، ورشف فنجان الشاي الذي تتصاعد أبخرته، ودخلت الممرضة الهندية «فاتسالا» قائلة:

- «لا أحد»..

- «بالطبع، فالجو لا يشجع على الخروج ومن ثم لن

يأتي إلينا أي مريض إلا إذا كانت هناك حالة ملحة أو مستعجلة. . .».

وعدت إلى الصمت والانكماش، ورشف الشاي الساخن، والنظر عبر النافذة إلى الأمواج الثائرة والزبد الثلجي الذي يعلو ويهبط، والسماء الملبدة بالغيوم. . .

ها هي مدينة رأس الخيمة تقبع هادئة على شاطىء الخليج العربي، وليس في الإمارة ما يثير، فهي تعيش بلا صحف أو مجلات. . وهذه الأوراق ذات قيمة كبيرة بالنسبة لي لكن ما الحيلة؟؟ يجب أن أنتظر آخر الأسبوع حتى أذهبَ إلى مدينة «دبي»، وهناك أشتري عدداً من الصحف والمجلات والكتب تكفيني لمدة أسبوع. لكني في الحقيقة أقرؤها في يوم أو يومين.

منذ عام وأنا أنام هنا. رفقتي من المضمدين والممرضات والفَرّاشين، وعدد قليل من المدرسين. . . ومع ذلك فأنا أشعر بفراغ كبير. . . هنا منذ عام. . . ما زلت أذكر يوم هبطت بي الطائرة في مطار دبي، ثم بقيت في الضيافة، (في فندق كارلتون) ثلاثة أيام، وبعدها حملتني السيارة «اللاندروفر» إلى هنا. . الحقيقة أنني أحسستُ بانقباضٍ شديدٍ لأول مرة، لقد بدت المدينةُ كقرية صغيرة لا تتناسب وتاريخها الطويل، وأسطولها البحري الضخم تتحدث عنه الكتب القديمة، وذكريات المعارك

البحرية على صفحة البحر، ورجال القواسم.

... تلك الأسرة العريقة التي كان لها حول وطول امتدَّ حتى شطآن أفريقيا، ومناطق كثيرة في آسيا.. على أطراف باكستان والهند وإيران... دنيا!! والحقيقة أنني مللتُ أكل السمك وأنا أكره الحياة التي تسير على وتيرة واحدة، وأكره طعام المعلَّبات... الأكل المحفوظ لا يستثير شهيتي..، وأكره أحاديث الناس، إن أغلبها ينصب على التجارة، وخاصة تجارة الأراضي، وعن أحلام تدفق البترول الذي طال انتظاره، وعن السيارات وأنواعها وحوادثها وأثمانها، وعن الغرباء الذين يتسللون إلى شاطىء الخليج، تراودهم أحلام الثراء. ليس هنا من يتحدث عن مسرحية جديدة، أو فيلم سينمائي جديد، أو حدث أدبي ذي بال، أو صراع سياسي ذي قيمة.. «آه».. لعنة الله على السياسة... لشد ما اكتويت بنارها، وتعذبت من جرائها في الماضي في بلدي البعيد، وهربت بجلدي باحثاً عن الأمن والسلام وهأنذا أَمَلُّ الهدوء وأحن إلى ألسنة اللهب التي قد تحرق أناملي وتسبب لي النكدَ والعناءَ والتشردَ من جديد..

أمر آخر يزعجني.. إنني أعيش بلا امرأة.. وليس هناك رجل لا يحلم بالمرأة، الطفل لا يشعر بالدفء إلا إذا ضمته أمه إلى صدرها، وأحاطته بذراعيها، والشاب لا

يستشعر الأملَ والقوةَ والنشوةَ إلا عبر النظرات الآسرة من عيني امرأة ذات عاطفة.. إنْ في الحقيقة أو في الخيال، والشُيَّب برغم انحناءة الظهر والعكاز والداء ينظرون في حنان، ويلمسون الأمل الغارب في حسرة.

عالم المرأة والرجل مشترك.. شيء واحد. ارتباط ضروري وهام... وأنا أعيش بلا امرأة «نظراتي الخبيثة تتسلل إلى وجه الممرضة الوسيم الأسمر».. وإلى شعرها الفاحم الناعم، وإلى عينيها الواسعتين المكحولتين بكحل رباني.. أشعر لمجرد قربها بقطرات من الماء تنسكب على ظمأي الخالد.. ولا شيء غير ذلك. فأنا مؤدبٌ خجولٌ. أحترم التقاليد وأتمسك ببعض القيم الدينية.. لكن بداخلي ألف شيطان أحاول جاهداً كلَّ لحظة أن أكتم تمردها، وأجهض وسوساتها الآثمة... أحاول أن أخمد في نفسي صراخ الحيوان وأحاول الصمود ضد الطبيعة والغريزة.. والواقع.. أشعر بحلاوة الانتصار.. انتصار!! أيُّ انتصار أأضحك على نفسي، إنه انتصار يحوطه الحرمان ويمازحه التشهي والجوع والظمأ والأرق والنوم.

ودخلت الممرضة «فاتسالا» مرة أخرى وأنا أرتجف من البرد.. يا لها من فتاة.. لماذا تكرر الدخول والخروج في هذا اليوم المنذر بالمطر، هي تعلم أنني أنشد الدفء وأصارع الحرمان.. إنها تتحداني، هتفت بنبرات حانقة غير

متوقعة مني، ولا تتناسب على الإطلاق مع ابتسامتها الحلوة..

ـ «ماذا تريدين مني؟؟» هي الأخرى مؤدبة، جاءت من بعيد من ولاية «كيرالا» تبحث عن القوت والحياة لها ولأهلها.. استغربت لهجتي المفاجئة التي ليس لها ما يبررها، لكنها أصرت على الابتسامة وإن احمرَّ وجهُها خجلاً وقالت: «رجل من الشحوح» أمره عجيب، الشحوح يسكنون الجبال المحيطة برأس الخيمة، وهم قبائل غريبة الشأن في كثير من تصرفاتهم، لهم لهجة خاصة.. عربية لكنها صعبة الفهم كثيراً. كيف هبط ذلك الرجل من الجبل، وكيف عبر الصحراء العاصفة المتربة في هذا اليوم الذي لا يتكرر في مثل هذه البلاد؟؟.

ـ «فليدخل...».

ونظرت إلى «سماعتي» وجهاز الضغط ومقياس الحرارة، وخافض اللسان. وقلت محاولاً التخفيف من لهجتي الحادة التي ليس لها ما يبررها:

ـ «لعله يريد دواء يقوي «الهمة»..

من أجل زواجه من فتاة صغيرة..».

ضحكت الممرضة، وأحنت رأسها خجلاً، ثم أعطتني ظهرها وانصرفت إلى الخارج.

وأخذت أفكر في الرجل القادم من قبائل الشحوح وفيما قلته للممرضة عنه، فالناس هنا يهتمون بالجنس أيما اهتمام، هو عنوانُ القوةِ والرجولةِ والشرفِ والكبرياءِ، رجلٌ بلا قوة بمعنى أنه بالميت أشبه.. وأن العار يلاحقه.. الرجال يظنون أن حيويتهم يجب أن تظلَّ صامدة حتى النهاية.. وهم يبحثون عن المقوّيات الجنسية لدى خبراء الوصفات الشعبية. حيث الأعشاب والسحر، والغريب من الأطعمة والأشربة ويبحثون عنها لدى القادمين على ظهور السفن القادمة من شواطىء آسيا وأفريقيا ويرسلون الروبيات ليشتروا كميات من أيِّ مكان في العالم.. وأنا أذهب إلى الصيدلي كلَّ مساءٍ أطلبُ منه قرصاً منوماً أو جرعة من «البروميد» تهدىء الأعصاب، سمعته يصرخ بصوت واضح:

- «علي زيد زيدون».

- تشرفنا.. ماذا بك؟؟

- «ليس بي شيء...».

- «آه.. فهمت... تريد حق الهمة».

ضحك الرجل وقال دون أن يزايلَه شحوب وجهه:

- «ابنتي في حالة خطرة».

- «أين هي؟».

- «هي قريبة جداً لدى سفح الجبل».

شَهقت من الدهشة، كيف تكون قريبة وفي نفس الوقت عند سفح الجبل، تناقض ساذج يبعث على الضحك، وعلى الغيظ أيضاً... في مثلِ هذا اليوم.. والصعود إلى الجبل أمر يضايق..

- «لا تغضب يا دكتور» معي سيارة.. استأجرتها من مالي..! إنَّها ابنتي الوحيدة.. رفضت أن يفحصها أحد من القبيلة.. حتى النساء أبت أن يقتربن منها.. وذات يوم.. من سنين بعيدة ماتت أمها.. وأنا لا أريدها أن تموت...».

قلت وأنا أنقر على الطاولة التي أمامي..:

- «علي زيد زيدون؟؟».

- «نعم...».

- حسناً.

ثم استدرت صَوْبَ الممرضة، وهتفت بالكاتب، وطلبت منهما أن يسجلا اسمه، وأن يحاولا التأكد من شخصيته، وعزمت على أن أخبر الشرطة قبل رحيلي، مَنْ يدري؟ يجب أن أحتاط لكل شيء، علمتني الأحداثُ - وخاصة السياسية - منها أن أثقَ في الناس بقدر، وأن أتحفظَ وأحذر، لن أَخْسَرَ شيئاً:

قلت له والسيارة منطلقة بنا، تعلو وتهبط فوق طريق رملي متعرج كثير المطبات والمنحدرات:

ـ «من شيخ قبيلتكم»؟؟ رفع رأسه في كبرياء وشموخ وقال:

ـ «أنا».

هتفت في دهشة: «أنت».

ـ نعم.

نظرت إلى قدميه الحافيتين، ولحيته الكثة، وثيابه المغبرة، وغطرته، وعقاله القديمين، وقسته بنظراتي المستغربة، وقلت ثانية:

ـ «أنت»؟

ـ «نعم.. قبيلتنا فوق الجميع.. حرمها آمن.. لا يستطيع أيُّ غريب أن يمسَّ شرفَها.. نحمي عزتنا بسيوفنا.. لا نخضع لأحد..» وضحك ثم قال في مكر:

ـ «لا تنظر إلى قدمي هكذا.. إن لدي حذاء جديد لا ألبسه وأحمله تحت إبطي في المناسبات.. لا أدري لماذا تهتمون كثيراً بالمظاهر.. علي زيد زيدون سيد الجميع، وقبيلته تتحرك وراءه بإشارة واحدة.. لأنهم يثقون فيَّ ويحترمونني، وكان أبي مثلي....».

ونزلت السيارة منحدراً شديد الانخفاض فارتجت بنا

رجةً شديدةً مما جعل المقعد يقذف بنا إلى أعلى فاصطدمت رؤوسُنا بسقف السيارة. فصرخت «آه» بينما ضحك علي زيد زيدون وقال: «إن الإبلَ مريحة جداً».

قلت: «لكنها لم تعد تصلح لهذا الزمان».

قال باسماً:

ـ «لا دخل للزمان، ظروف المكان هي التي تحدد..».

هززت كتفي في غير قليل من السخرية وقلت:

ـ «الزمن أقوى، واعتراضك لا يغير من الحقيقة..».

ـ «سنرى..».

عندما بلغنا سفح الجبل توقفت السيارة، ونزل شيخ القبيلة، ثم تبعته دون سؤال، ووجدته يشق طريقه عبر مسارب الجبل.

الطريق ضيق يفرشه حصى صغير، ومستوى الطريق يرتفع بنا كلما تقدمنا، وشعرت بالدفء يسري في جسدي لِمَا أبذله من جهد، حتى أن بعضَ قطرات العرق أخذت تلمع فوق جبهتي وحذائي ناعم أنيق، ينزلق بي في المواضع الصخرية التي تخلو من الحصى أو الرمال، قلت:

ـ «هل البيت بعيد؟».

ـ «بل قريب جداً. .» ثُمَّ ضحك واستطرد:

ـ هأنتذا ترى أن المكان يحدد وسيلة المواصلات. . هذا الطريق لا تصعده سيارة ولا يسير فيه حتى الجمل أو الحمار. . . .

قلت:

ـ «لكن إمكانيات العصر تستطيع أن تَشُقَّ الصخر، وتسوي طريقاً رائعاً. .» هز كتفيه في سخرية.

ـ «ليس لدينا منها شيء. . .».

أشرقت الشمس، وبدت زُرْقَةُ السماء كابتسامةٍ حلوةٍ، كقلب منشرح يفيض بالأمل والحب، النظر إليها يبعث على الرضى والسعة. . والسعادة. .

صفاء السماء يثير في نفسي ذكريات جميلة عن الحرية والآفاق المفتوحة حيث لا أسوار ولا غيوم. .، وأنا بطبعي أكره الظلام والغيوم. .

قلت لرفيق الطريق:

ـ تَحَسَّنَ الجَوُّ كثيراً.

قال:

ـ «ابنتي تلتقط أنفاسَها بصعوبةٍ بالغةٍ. . أخافُ أن تموت. .».

ـ «إنك تفكر في شيء آخر».

ـ «وجهها قد اكتسى بُزْرقَةٍ مخيفة.. عيناها تُحَمْلِقان في ضراعة..».

ـ «لا تقلق.. الأمر هيِّن بإذن الله..».

حاولت أن أصرفَه عن التمادي في هذا التفكير المقبض الحزين، فقلت:

ـ «انظر إلى السماء..».

ـ «ليس فيها ما يبهج».

ـ «عجباً!! أتكره الدفء والنور؟..».

قال وهو يلوح بيده مستغرباً:

ـ «المطر حياتنا يا رجل..».

ما أغباني، كثيراً ما أتعمق ذاتي، وأحكم من وجهة نظري، وأنسى الآخرين، ربما كان هذا هو السبب في بعض حماقاتي السياسية، ومتاعبي الاجتماعية، إنني أرى الآن مقاييس جديدة للجمال والسعادة.. هو يرى الجمال في المطر. يربطه باحتياجاته ولقمة عيشه ولا يجرده من ظلاله وروافده، وأنا أرى الجمال في الشمس والصفاء وزُرْقَةِ السماء...

إنني أتعلم من هذا الرجل الشحوحي أشياءَ جديدةً،

أتلقاها منه بهدوء ورضى لأن كلماتِه تخلو من العنجهية والاستعلاء وادعاء الحكمة، إنه أستاذ بسيط، ولا يشعر بتلك المكانة «فيلسوف وإن لم يسمع بكلمة فلسفة من قبل». . وماذا تهم المصطلحات. . المهم الحقيقة ولا يهم الوعاء الذي تُصب فيه ولا الألفاظ التي تحملها، ولا العنوان الكبير الذي تنضوي تحتَه. .

سمعته يقول، وهو يخطو في ثقة دون أن يبدو عليه آثار الإجهاد:

ـ «في الحرب نموت ولا نخاف. . نقتحم المخاطر دون أن نفكر كثيراً في العواقب. . لكن المرض شيء آخر. .».

تفتحت أذناي وقلبي وعقلي، وقلت:

ـ «كيف!؟».

ضحك في براءة، وقال:

ـ «لا أدري. . ها أنت ترى أن قلبي يتمزق من أجل ابنتي. . وأنا منذ عام أصابتني حُمّى مستعصية. . كنت أرْتَعِدُ لمجرد كلمةِ الموت، وعند خوضي المعارك لا أرْهَبُ الموت مطلقاً. . أتعرف أنت سبباً لذلك؟!».

لم ينتظر جوابي، وإنما استطرد قائلاً:

ـ «ربما لأنَّ الإنسان ليس شيئاً واحداً. . إنه كل يوم في حال».

هززت رأسي وأنا أستمع لذلك الفيلسوف المتواضع، إن كلماته قد لمست قلب الحقيقة، وهل تعلم النفس رأياً غير ذلك؟؟

إن الإنسان عاطفياً مجموعة من الحالات النفسية المتنوعة. . الإنسان المحارب غير الإنسان المريض، وهكذا يلتقط العلماء الحقائق الأزلية. .

إننا نسير أكثر من نصف ساعة في قلب الجبل، وبعض الأغنام تنطلق بلا راع تلملم الحشائش الجبلية، ترفع إلينا رؤوسها في جمود وبلادة، ثم تعود بحثها عن الطعام. . . لو مَرَّ قيصر نفسه لما تغيرت نظرة الأغنام، ولما قللت من انهماكها في البحث عن طعامها.

تمتمت قائلاً:

ـ «طال الطريق يا شيخ. .».

ـ «قلت لك البيت قريب. .».

يجب ألا يتكرر غبائي مرة ثانية، الزمن بالنسبة له غير الزمن بالنسبة لي. .

نصف الساعة أنظر إليه وكأنه فترة طويلة كالطريق

الذي أبذل جهداً شاقّاً في قطعه.. لكن نصف الساعة لديه.. لحظة..

ـ «ابنتي هذه أحبها وأكرهها.. تصور»!!

ـ «كيف ولماذا؟؟».

ـ «ترفض الزواج من ابن عمها.. إنني لا أقبل اعتراض النساء.. لكنها في نفس الوقت ذات خلق وإباء.. هي بحق صورة لكبريائي ومكانتي..».

نظرتُ إلى ملابسِه الرَّثَّة القَذِرة وأقدامِه الحافية، ولحيتِهِ المهملة وكدت أضحك، لكنه عاجلني قائلاً:

ـ «ومع ذلك، فأعتقد أنها لا بُدَّ أن تتزوجه..».

توقفت عن المسير لألتقط أنفاسي، وأجفف عرقي، وأشعل سيجارة، وأعطيته واحدة فشكرني ـ مبدياً عدمَ رغبة في التدخين أثناء السير ـ، قلت وأنا أقتعد صخرة ملساء بللها المطر:

ـ «لكنني أخالفك الرأي. لم لا تدعها تتزوج من تشاء..».

مسح على لحيته قائلاً:

ـ «طاعة الرجال للنساء خراب ودمار.. وخاصةً في مثل هذه الأمور..».

ـ «إنَّه أمر يخصُّها يا شيخ..».

حملق بعينيه الحادتين السوداوَيْن قائلاً، وهو يشير بإبهامه نحو صدره:

ـ «يخصنا نحن الرجال..».

ـ «الدنيا تغيرت كثيراً..».

ـ «لكنهن دائماً ناقصاتُ عقل ودين..، وللقبيلة أصول تسير عليها منذ القدم..».

قلت في شرود:

ـ «القانون؟؟».

ـ «أجل.. نموت ولا نسطو على كرامة الأصول التي توارثناها..».

ومضيت في شرودي قائلاً:

ـ «أنا عانيت الكثير من القانون يا علي بن زيدون.. كنت أحترمه بشدَّة.. لأني عصريٌّ واعٍ وحرٌّ.. لكن وأسفاه.. كان الطاغية يسوقنا إلى سجن رهيب، ويفعل بنا ما يشاء.. دون أن يشعر بنا القانونُ ولا سدنتُه الموقرون.. القوة يا عليّ هي التي تصنع ما تشاء من قوانين..»

ثم التفت إليه قائلاً:

ـ «صدقني إن قانونكم.. أعني الأصول التي تتحدث عنها.. أجدر بالاحترام لأنكم ـ مهما كانت طبيعتها ـ لا تخرجون عليها.. قد يكون فيها قسوة أو غرابة.. لكنكم تطبقونها»..

قال مندهشاً:

ـ «وشأن الطبيب بالسجون؟؟».

نظرت حولي فلم أجدْ غيرَ القمم والوديان ومسارب الجبل وبعض الكهوف، وأغنام وماعز.. وبعض النباتات الخضراء القميئة التي اغتسلت بماء المطر الصافي، وقلت:

ـ «لقد طال الطريق..».

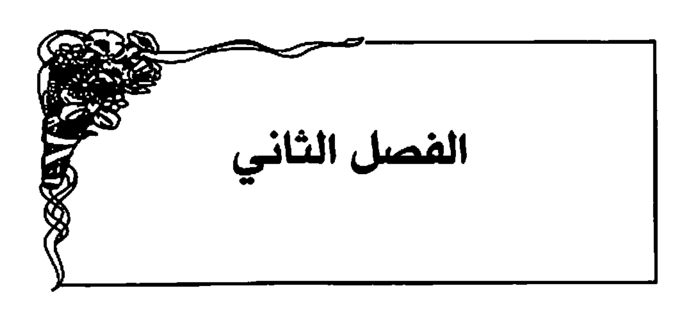
قال بإيجاز، وهو يرفع استئناف المسير:

ـ «لقد أوشكنا.. آه.. كلما تذكرتها أشعر بغَمٌ شديدٍ.. تَصَوَّرْ عندما أراها تلهث وتحاول أن تجذب الهواء إلى رئتيها بصعوبة... أشعر أنا الآخر باختناق»؟!

مسكينة مريم..،

ولاح من بعيد ثلاثة من الرجال يقفون كالصقور على إحدى الروابي، وقد علقت البنادق في أكتافِهم..

***



الفصل الثاني

... انزوت في ركن من الغرفة، ... كنت أرى بريق عينيها الخائفتين الضارعتين يخترق الخمار الأسود الشفاف، . كانت لم تزل تلهث دون أن تصدر عنها كلمة واحدة وقال علي زيد زيدون بِغَمٍّ ممتلىء. . :

ـ «هذا طبيب. . لا داعي للخجل. .».

ثم انصرف، بينما ولفت امرأة عجوز، لم أفهم كلمة واحدة من ثرثرتها لأن اختلاف لهجتها، وأسنانها المهشمة، والبرقع السميك، وتهيبي من الموقف تآزرت كلها في عدم إدراكي لما تقول. .

رفعت مريم خمارها، لم أجد زُرْقَةً مخيفة كما صَوَّرَ لي أبوها لكني وجدت وجهاً أسمر، تضرج بحمرة فاتنة، وأهداباً سمراء تحرس عيوناً سوداء حَذِرة، وشفتين دسمتين ترتجفان، كل ملامحها تكتب شعراً من الجمال الوحشي القاتل. . حقيقة أن للوجه دوراً كبيراً في التأثير، وتحديد

درجةِ الشخصيةِ وقوَّتِها، فمن الوجوه ما أقف أمامه متهيباً خاشعاً، ومن الوجوه ما ينتزع الابتسامة من بين شفتي أو يبعث على عدم الاهتمام.

ابتسمت في توتر.. وهمست:

ـ «لا تخافي يا مريم..».

أدارت وجهها صَوْبَ الحائط المُغَطَّى بعشرات الصور لكثير من الزعماء ونجوم السينما وإعلانات البضائع وقالت في شراسة محببة:

ـ «أنا لا أخاف..».

وقلت للعجوز:

ـ «ساعديني يا أمي لكي أفحص صدرها بالمسماع».

تكوَّرت مريم على نفسها، وتشبثت بثيابها وهتفت في نفور:

ـ «يا للعار!! كيف؟؟ أنت طبيب وتعرف».

اقتربت منها في وُدٍّ، وربّت على كتفها في هدوء، وأنا أقول:

ـ «الطبيب ليس منجماً، ولا ساحراً.. ولا بُدَّ من وضع المسماع على صدرك..».

أخذت تسعل، اجتاحتها نوبة من السعال الحادّ والجافّ، وكنت أسمع عن بعد الصوت الموسيقي المميز للربو، ثم قالت:

ـ «مستحيل».

وفتح الباب فجأة، ثم دلف أبوها مكفهر الوجه، وانقض عليها وجذبها من ذِراعها وصرخ مهتاجاً:

ـ «أنت لا تعلمين ما تكبده الطبيب من مشقة».

تدخلت بلطف، ورجوته أن يترك الأمر لي، فانصرف وهو يحذر وتأكدت من إغلاق الباب وقلت للعجوز «هيا» بينما استسلمت مريم، واستلقت على ظهرها وكشفت عن صدرها الذي زاد معدَّلُ علوِّهِ وهبوطِهِ..

الدموع تبلل أهدابها، ووجهها متجه إلى الجانب المقابل، وثورة مكبوتة ترتسم على محياها ونظراتها، وتأكدت من الرئتين والقلب، ثم قست ضغط الدم، ودسستُ مقياس الحرارة بين شفتيها، وحاولتُ جاهداً أن آخذَ تاريخ المرض، وتمتمت في رضى وابتسام:

ـ «حسناً كل شيء على ما يرام يا مريم..».

همست وقد ألفت الجو، وجففت دموعها:

ـ «أكاد أختنق..».

ـ «أعرف..».

وبحثت عن المحقن في حقيبتي، وملأته بالدواء، وتمتمت وأنا أتناول ذراعها بمساعدة العجوز التي لم تكفّ عن الثرثرة، وقلت:

ـ «إن هي إلا دقائق معدودة، وستشعرين بالراحة..».

جلست إلى جوارها على سجادة قديمة وأخذتُ أُجاذبُها أطرافَ الحديثِ كلها تدور حول المرض، ثم بحثت عن دواء مهدىء للأعصاب وآخر مضاد للحساسية، فوجدتها، في مثل هذه الحالات، وفي تلك الأماكن النائية يجب أن يحتاط الطبيب، حتى يوفر على نفسه وعلى المريض الكثير من المتاعب، ولن يكون في زيادة التأكد، وإعطاء مزيد من الأدوية أية أضرار..

وخرجت العجوز لتحضر كوباً من الشاي ووجدتني أقول دون تحفظ، لا أدري لماذا:

ـ «قال أبوك أنك ستتزوجين عما قريب..».

رمتني بنظرة لم أزلْ أذكرها جيداً، تجمع فيها كلَّ ما يمكن أن يحمِلَه قلبُها من رفضٍ وإصرارٍ، وقالت:

ـ «هذا لن يكون.. الموت أهون..».

ثم أردفت وهي تبتلع ريقَها:

ـ «ذلك هو سبب بلائي ودائي. .».

ـ «الأمر دقيق وحسَّاس. . ، والعريس ابنُ عمك. .».

همست في تحد:

ـ «البعير لا يأكل إلا ما يروق له».

وأدركت أن معدل تنفسها قد أصبح طبيعياً وأن وجهها قد تكلل بالإشراق والاطمئنان برغم ما يعتريه من غضب خفيف، وقلت وأنا أضع أدواتي في الحقيبة:

ـ «أتمنى أن أراك مرةً ثانيةً».

ـ «لماذا؟».

ـ «أعني أن تحضري إلى المستشفى، وسأعطيك كمية من الدواء تستعملينها عند الضرورة. .».

أضاء وجهها بفرحة طفلية، وبدا أن الفكرة راقت لها وقالت باسمة:

ـ «إنني أحب الذهاب إلى رأس الخيمة. إن فيها العجائب. . رأيت فيها «السينما» ألم تَرَ السينما؟؟ لم أكن أفهم كلمة واحدة لكنها كانت تسلية جميلة. . رأيت نساء جميلات. . وأغنيات. . وبحوراً. . وجبالاً. . وحيوانات. . ورجالاً يتصارعون ويخطفون النسوة. . إنني لم أزل أحلم

بتلك الليلة.. لكن أبي يمنعني من الذهاب ثانية ويزعم أن السينما أورثتني الجنون. وصمتت برهة، ثم شردت إلى بعيد وقالت وهي في قمة النشوة والسعادة:

ـ «لسوف آت إليك.. ما عليك إلا أن تخبر أبي..».

ـ «إن تكملة العلاج أمرٌ ضروري..».

رمتني بنظرة امتنان.. لم يفتني ما تحمله تلك النظرة من مشاعر الشكر والتقدير، وكانت صفحة وجهها توحي بالبراءة والطفولة والعُذرية، لكنَّ مسحة الجمال الوحشي الكامنة في سمرة الوجه، وسواد الأهداب، وأعماق العيون، لم تنطفىء لحظة واحدة حتى في ثورة الحزن والدموع ظلت متوهجة حية.. وشدت على يدي بقوة عند الرحيل... تمنيت أن يطولَ الحديث.. لكن كيف؟؟ كنت دائماً أعجب أشدَّ العجب بالرحَّالة والمكتشفين، أولئك الذين اكتشفوا القمم، والأرض، وأقواماً على الفطرة.. أيُّ إحساس بالروعة والفخار والانتشاء كانوا يحسون به وهم يرون عالماً جديداً بكلِّ ما فيه، وقد زالت عنه الطلاسم والحجب!! طالما حلمت بأرض ليس فيها سياسة وسجون وذئاب بشرية.. أبسط اللباس، وأبسط الطعام.. ثم الحرية..

وعزمت على المسير. لكن شيخ القبيلة أبى، وأقسم ألا بُدَّ من ذبح الخِراف، والقيام بالواجب.. واعتبر رفضي إهانةً بالغةً لا تغتفر.. ولم يكن هناك مفرٌّ من الانتظار، ووجدتهم أي رجال القبيلة يعوون كالذئاب.. ما هذا؟؟ وشرح لي أحد المطاوعة الأمر وهو «حسن بن محمد»، وقال: إن هذا إعلان عن وجود ضيف عظيم نحرت من أجله الذبائح.. وأدركت منذ البداية أن هذا المطوع يرمقني بنظرات حاسدة حاقدة، ويحاول أن يسخر من الطب والأطباء، ويؤكد أن معلوماته وخبرته، أكثرُ بكثير مني ومن أمثالي، وأخذ يروي عشرات المعجزات التي تمت على يديه، ولما سألته لماذا لم تُشْفَ مريم أجاب:

- «إنها فتاة غريبة.. لم تتناول عقاقيري عن إيمان.. تسخر من كلِّ شيء.. ولا تحترم أحداً.. لو كنت مكان أبيها لقطعت رقبتها.. هذا هو الدواء الناجع..» ولم نبدأ في رحلة العودة إلا بعد أن أكلنا وشربنا القهوة.. هذا وقت الأصيل، والسحب المنمقة بالوشي الذهبي تتوج الجبال العملاقة... والبحر من بعيد يبعث بهدير أمواجه ذات صدى مترامي.. وقطعان الإبل والشاء تعود أدراجها إلى حظائرها... وعلي زيد زيدون يتحدث..

- «إن خميس ابن عمها فتى لا بأس به، وهو ابن عمها أولاً وأخيراً.. أما ذلك الصعلوك المدعو عبد الله،

فهو فتىً تافه لا قيمةَ له.. لم يُعْرَفْ عنه سوى الجبن والاستهتار والتبطل.. إنه منا ونحن منه، لكن لا يصحُّ أن يتزوج من ابنتي.. قال لي أبي رحمه الله أن جدَّه «عبد الله» لأمه كان من جنس العبيد.. ومريم ابنتي طيبة القلب يخدعها المظهر الكاذب، والكلام المعسول...

عبد الله خواء في خواء. كلما تجمع لديه ريال أو أكثر.. هبط المدينة ليلهو ويعبث... لقد نفقت حيواناته كلها لإهماله.. أتعتبر امرأً بلا حيوانات من عداد الأصلاء؟ مستحيل... ماذا أقول؟؟ إنه أقذر مما يتصور عقل.. وهي الغبية تغض الطرف عن كل ذلك.

كلما عددنا لها مساوئه، ازدادت تمسكاً به.. الحقيقة أنا لا أقسو عليها لأني أحبها بشدَّة.. لكن عندما يجد الجد، وتحين الساعة سأجْدَعُ أنفَها وأُرْغِمُها على فعل الصواب..».

كان شيخ القبيلة يتكلم وبرغم متابعتي لكل ما يقول إلا أن وجه ابنته ظلَّ عالقاً بخيالي، الوجه الأسمر الفاتن بجماله الوحشي المتحدي، وبساطته القاتلة.. إنها تذكرني بأغنية غجرية صاخبة.. تنضح بالحرارة.. والعرق. والثورة.. في فيلم من أفلام الغجر لا أدري أين رأيته.. ربما أكون قد رأيته في رأس الخيمة.

وقال علي زيد:

ـ «أذكر أنه كان لدينا ديك شَرِسٌ، ودائماً ينشب أظفاره في الدجاجات المسكينةِ حتى يُدميَها، لكن الدجاجات كانت دائماً تحوم حولَه، مع أنها تخافه.. وتعاود الكرة والدماء تسيل منها.. الحقيقة برمت بهذا الوضع.. وذبحته..

انتفضت فجأة لكأنما باغتتني الكلمة القاسية وصرخت:

ـ «ذبحته؟؟».

ـ «أجل.. الديك..».

ثم قهقه قائلاً:

ـ «المصيبة أن الدجاجات كانت تبحث عنه في اليوم التالي.. وترفع عقيرتها بالصياح.. وكأنها تندبه.. صدقني لم أطق هذا المنظر... ولاحظت أن عدد بيضها قلَّ كثيراً.. وأنا أكره التمرد.. لقد أمرت ببيعها كلها.. وقررت أن نبدأ تربية جيل جديد من الدجاجات..».

وعاد يقهقه ثُمَّ قال:

ـ «لماذا لا تتكلم؟؟».

ـ «إنني قَلِقٌ من أجلِ مريم..».

ـ «لماذا؟ لقد أصبحت في صحةٍ تامةٍ».

ـ «تحتاج لمداومةِ العلاج..».

ـ «سأبعث لك كلَّ أسبوع بمن يحضر لها الدواء..».

لوحت بيدي معترضاً.

ـ «لا، يجب أن تأتيَ بنفسها حتى أتمكنَ من فحصِها..».

هزَّ رأسَه ثُمَّ قال:

ـ «أتعتقد أنه من الضروري تأجيل زواجها؟».

ـ «بالطبع..».

وعدت إلى المستوصف وقد تلفعت المدينة بالظلام، الحارس لدى الباب يتثاءب، ويغالب النوم، والممرضة الهندية تقف في حجرة الاستقبال لتسعف مريضاً، وسددت الهندية إليَّ نظرات ذات معنى، وقالت:

ـ «لقد تأخرت كثيراً».

قلت:

ـ «أنت تعلمين «يا فاتسالا» أنَّ المكانَ بعيدٌ».

ـ «لقد قلقنا عليك».

هززت رأسي شاكراً وأنا أرتمي على المقعد مُنْهَكاً..

«فاتسالا» فتاة غريبة، ليست على غِرارِ مثيلاتها

الهنديات، فبرغم ذكريات الفقر والنكد والغُرْبة، إلا أنها تهتمُّ بملبسها في العملِ وخارج العمل، تلبس «الساري» الحريري الجميل إذا خرجت بعيداً عن أسوار المستشفى، وتضيق بطول البقاء في مسكن الممرضات، ويحلو لها التنزه من آن لآخر، أشعر في كثير من الأحيان أنها مكبوتة، وأن لها تطلعات كثيرة تحاول جاهدة أن تُخْفِيَها، لكن نظراتها المعبرة، وما يفلت من لسانها من كلمات، تشي بالكثير مما يعتمل في داخلها.

إنها مسيحية، لكنها ليست متدينة، وهي تأنس لكثير من نساء ورجال «رأس الخيمة»، وتزورهم أحياناً في بيوتهم، حتى ثارتْ حولها الشكوكُ ظُلماً، ليس في سلوك الفتاةِ ما يعيب في الحقيقةِ، لكنَّ زياراتِها، وتبسطها في الحديث يجلِبُ لها الظنونَ في مجتمعٍ مغلقٍ ينظر إلى مثل هذه الأمور بعينِ الشَّكِّ، وأنا دائماً أنظر إليها باحترام ومَوَدَّةٍ، سمرتها الفاتنة تشدُّني إليها، لكني أقف دائماً قبالةَ نفسي كالحارس اليَقِظِ.

يا ويحي إن سقطت سقطة صغيرة، ستنهش الألسن لحمي، وتتناول الأفواهُ سيرتي، ويقضي على مستقبلي قضاءً مبرماً... وأنا طبيب، ويا ويل الطبيب إذا لاكت الألسنةُ ذكره بما يخجل...!!

❋ ❋ ❋



الفصل الثالث

أحياناً أجدني وحيداً في مسكني إذا حَطَّ المساء، فأستشعر ضيقاً بالغاً، وأكاد أختنق، يُخيَّل إليَّ أن سقف الحجرة التي أجلس فيها وحيطانها الأربعة سوف تطبق علي وتسحقني فأسارع بارتداء ملابسي، وأذهب إلى غرفتي في المستشفى ومعي الراديو وبضعة صحف ومجلات وكتاب، وأجلس هناك مستمتعاً بمَن حولي من العاملين في المستشفى، بعضهم ينقل إليَّ أحدث أخبار الإمارة، وأنباء العراك والزواج والطلاق وتجارة الأراضي، وتوقعات ظهور البترول، أو يروي لي طرفاً من تاريخ الإمارة القريب، وبعض المعارك التي لم ينقض عليها أكثر من عشرين عاماً، ويذكر لي عديداً من الأسماء وخليطاً من القبائل، وكثيراً من الأماكن.. وأنا لا يكاد يعلق برأسي إلا القليل.. لأن حفظ الأسماء شيء صعب بالنسبة إليَّ..

وكثيراً ما تأتي «فاتسالا» تسألني عن بلدي.. عن

حضارتها.. عن بعض الأماكن التاريخية فيها، وأنا أحاول جاهداً بلغة إنجليزية متضعضعة أن أرويَ لها ما تريد.. وكثيراً ما يأتي «الصيدلي الهندي» فيرمقها بشيء من الغيظِ..

ـ «انظري «يا فاتسالا».. إن بيتر يبحثُ عنك».

فتهز رأسها دون اكتراث:

ـ «إنه إنسان معقَّد.. يُعَذِّبُ نفسَه بنفسِه».

فأضحك قائلاً:

ـ «لم لا ترحمينه؟؟.. إنه يحبك».

فترتسم على وجهها علامات الضيق والاستنكار وتَشْهَقُ مستغربة:

ـ «ماذا؟؟ لم يخطر ببالي شيء من هذا».

ـ «في الغربة يحتاج الإنسان إلى رفيق... إلى ذراعٍ تشتبك بذراعِه».

قالت عاتبة:

ـ «الهنديات على طول الساحل..».

ثم التفتتْ إليّ قائلة:

ـ «وأنت. لم لم تفكر في شريكة لحياتك؟؟».

ضحكتُ قائلاً:

ـ «أنا أبحث في كلْ اتجاه» . .

ـ «لو كنت جاداً لوجدت» . .

تنهدتُ قائلاً: «يا ليت».

ولعبت بمفاتيح الراديو الكبير أمامها، فخرجت منه أغنية هندية جميلة، موسيقاها حلوة تغلغل إلى الأعماق، وتهزُّ المشاعر، قلت دون أن أفهم كلمة واحدة منها:

ـ «أغنية رائعة . . » .

ـ «لكنك لا تفهم كلماتها . . بيتر وحده يُدرِك معانيَها إلا أنهّ في الخارج» .

قلت: «اشرحي لي معانيها» .

خفضت من صوت الراديو، وأخذت تقول بلغةٍ إنجليزيةٍ واضحة:

ـ «نبراتك كالنسيم الرطب . . لكنها تشعل روحي .

ـ ابتسامتك تورق بالحب والأمل . .

ـ وعيناك مدينة مسحورة تبهرني فيها الأحلام والأشواق .

ـ لكن كلمات الفراق تبعث القشعريرة في جسدي .

ـ فتثلج أطرافي.

ـ وتبكي أغنياتي.

ـ ويرجف قلبي لعصفور جريح..

ـ فلتخدعني إن كنت راحلاً.. وحدثني دائماً.

ـ عن الحب والأحلام والورود الجميلة.

ـ واملأ قلبي بروعة المستقبل.

ـ حتى إن كنت تنوي هجراني.

ـ يا حياتي الأبدية...

ـ وأغلقت «فاتسالا» الراديو، وأسرعت خارجة، ويقيت مسمراً للحظات وأنا أهيم في جوِّ الأغنية المثير، ولم أقف إلا على خطواتها وهي تقطع الغرفة، ثم تتوارى في ظلام الباحة القريبة من سكن الممرضات.

ـ ضحكت من نفسي وأن أغرق في أحلام غريبة، أتصور أن «فاتسالا» توشك أن تكون لي زوجة، وأتصور أننا معاً ونحن نذهب إلى قريتنا البعيدة في إحدى الإجازات السنوية، وأتخيل جدتي وهي تتحسس جسدها النحيل وترمق وجهها الأسمر الفاتن، وأتخيل الدهشة التي تعلو وجوه أهل القرية... إن الأمر لو تَمَّ على هذه الصورة المتخيلة، فسيكون لا شكَّ حدثاً كبيراً من أحداث القرية التي لا يمكن أن ينساها أحد..

جاءني «بيتر» الصيدلي في اليوم التالي وقال مكفَهِرّ الوجه:

ـ «إن «فاتسالا» تبيع نفسَها للشيطان».

قلت وقد صدمتني كلماته:

ـ «اعقل يا بيتر».

ـ «إنها على علاقة مريبة ببعض شباب الإمارة».

رددت في انفعال:

ـ «لا أسمح لك بالتمادي في هذا الافتراء».

ـ «أنت رئيسنا يا دكتور ويجب أن تكون على علم بما يجري».

ـ «وما دليلك؟».

ـ «كلام الناس.. وخروجها المستمر في أوقات الفراغ».

ـ «حسناً.. دغ هذا الأمر لي».

قال وهو يهم بالخروج:

ـ «أخشى أن يكون الأمر قد بلغ رئاستنا في «دبي» وقد ينالك شيء من اللوم والعتاب.. بل قد يرمونك بالتقصير».

وفتح الباب فجأةً، واندفعت «فاتسالا» دون انتظار، كأنَّ وجهها قد اتخذ وجه نمرة شرسة، فتقدمت نحو «بيتر»، وجذبته من رباط عنقه وصرختْ باكيةً!

ـ «أنت كاذب.. إذا كنت أنا على هذه الصورة من العفن والانحطاط فلم أتيت تطلب مني الزواج.. أمس؟؟..».

شحب وجه «بيتر»، وتلعثم، وأخذ ينثر كلمات بلا معنى، يختلط فيها الاحتجاج بالغضب بالاشمئزاز والخوف والارتباك.

وعادت تقول:

ـ «إنني حُرَّة، ولن يستطيع بيتر ولا غيره أن يستعبدني بألاعيبه..».. إنه يعرف حساسية هذه الأمور بالنسبة للمجتمع هنا، ويدرك أنني في حاجة ماسَّة إلى وظيفتي، ومن ثَمَّ يلعب لعبته القذرة.. كي يرغمني على طاعته..».

خرج «بيتر» فاقتربت منها وربت على كتفها في وُدٍّ وقلت:

ـ «هَوِّني عليك مجرد تفاهات لا معنى لها».

ـ «هذا الثعبان يريد أن يبلغ مرادَه بأخسِّ الوسائل.. إنني أدرك ماذا يقصد، يريد أن يسيء إلى سمعتي، ويلوث

اسمي حتى يزورّ الناس عني، وينفضّوا من حولي فلا أجد أمامي سواه.. فآتي إليه وكأنّه الفارس المنقذ.. هذا الوغد أنا أفهمه جيداً».

وجففت دموعها قائلة:

ـ «وأنت ما رأيك في سلوكي الشخصي؟ إنه يهمني جداً..».

قلت، والعرق يتصبب على جبيني:

ـ «لا غُبارَ عليه..».

أشرقت عيناها بالفرحة وقالت:

ـ «هذا يكفيني..».

لم يمرّ الأمر دون ضجة وحساب في المستشفى، لقد استدعيت «بيتر» بعد ذلك، وقسوتُ عليه في النقد واللوم، وأفهمته أنني أدرك لعبته القذرة جيداً، وهددته بالعقاب الصارم.

إن التساهل في مثل هذه الأمور قد يجلب علينا المتاعب الجَمّة داخلَ المستشفى وخارجَها، وشرحت له طبيعة الموقع الذي نؤدي واجبنا فيه، وما يجب اتباعه من سلوك وتصرفات، فأحنى «بيتر» رأسه في أدب، واعتذر عما حدث، ووعد بعدم تكراره وكان واضحاً أنه نادم على

كل ما جرى، وكاد يخطف يدي ويقبلها وهو يصافحني معتذراً.

... ومضت أيام قليلة لم يحدث فيها ما يُعَكِّر الصفو، لكني فوجئت ذاتَ مساء بناطور المستشفى يدق باب بيتي في هدوء ويقول: «جئت لأشرب معك فنجالاً من القهوة..» وكان هذا شيء لا يثير أيّ غرابة، فالفروق بين الناس هنا قليلة، مكانة الطبيب في عمله فقط، وليس له أيُّ منزلة اجتماعية في السلوك العام تختلف عن الآخرين وهم ينادونه باسمه مجرداً، وكذلك يتعاملون حتى مع الأسرة الحاكمة، يأخذون الأمور ببساطة دون تعقيد، لا يلجأون إلى الانحناءات المبتذلة، ولا إلى عبارات التفخيم والتعظيم المتداولة، وأخذنا بعد فترة نرشف القهوة العربية، ثم قال حارس المستشفى:

ـ «ما كان يجب أن أخفي عنك شيئاً.. قلت لنفسي يا «عبيد» إن شرف الطبيب من شرفنا، وما يسيئه يسيؤنا، ومِن ثَمّ قررتُ أن أخبرك بالأمر».

بالطبع انتابتني الشكوك، ولعبت برأسي الهواجس، وأنا لا أطيق الصبر، قلت في ارتباك:

ـ «تكلم».

قال وهو يمسح لحيته الكَثّة:

ـ «هذه الملعونة».

لا أدري لماذا وثبت إلى ذهني على الفور صورة «فاتسالا» فكأنما يحمل الإنسان في رأسه جهاز استقبال حساس يستطيع أن يحيل الشفرات إلى كلمات، ويترجم الغموض إلى وضوح، واستطرد «عبيد» في هدوئه القاتل المثير:

ـ «يزعمون أنك تعشقها.. هؤلاء الغرباء لا كرامةَ لهم، ولا يحفظون النعمة، ويوقعون أنفسهم وغيرهم في المصائب.. والإنسان منا ضعيف مسكين.. ولو كنت ملاكاً لاستطاعت هذه الشيطانة إغواءك».

اتهام صريح، وتسليم غريب بأن المحظور وقع، وتصديق لافتراءات لا أصل ولا أساس لها. قلت وأنا أرتجف من الغيظ:

ـ «معنى هذا أنك صدقت».

ـ «لا ذنبَ لي.. الناس هنا يقولون كلاماً كثيراً».

ـ «لكنك تعيش معنا يا عبيد وترى كلَّ شيء».

قهقه عبيد في برود، وقال:

ـ «هم يزعمون أنني أتستر عليك، وأقبض منك الثمن مع أنك لم تعطني درهماً واحداً..».

تفاصيل غريبة مذهلة أخذ عبيد يرويها.. صرخت كالمجنون:

- «أخرج أيها الكلب..».

- «ما ذنبي؟؟ هل أخطأتُ إذْ أبلغتُكَ ما يقوله الناسُ عنك حتى تحتاطَ لنفسك، أو تأخذَ حذرك..».

- «ولماذا لم تخبرهم بالحقيقة؟ أنت تعرف..».

قال في غباء مثير:

- «قلت أسألك أولاً.. من أدراني أن ما يقولونه غيرُ صحيح.. ثم إن دفاعي عنك يجعلني شريكاً في الجريمة، وأنا لا ذنب لي..».

انتفضت واقفاً، ثم دفعته خارج الغرفة، وظللت أدفعه عبر الصالة حتى شرفة البيت.. وأغلقت الباب، وجلست أنتفض من الغيظ والحنق، ماذا أفعل؟! كيف أتصرف؟ إن السكوت معناه الفضيحة والتشهير بي وبسمعتي، وبمستقبلي، آمنت عند ذاك أن للطغيان صورة أخرى..

كنت أظن أن الحاكم الظالم أو وزير الداخلية القاسي، أو ضابط الاستخبارات المتعجرف، كل هؤلاء هم الطغاة... الطغيان مرتبط في ذهني بجهاز الحكم المستبد... لكن اليوم أرى طغياناً من نوع آخر.. طغيان الناس.. جمهرة الشعب. الشعب الذي لا يتأنى ولا

يتروى، ولا يكلِّف نفسَه مؤنة البحث عن الحقيقة ويصدق أيَّ كلام يقال له، ويطارد الشرفاء الأبرياء مثلي بشبح جريمة لم أرتكبها، وأنا أعيش في كبت وضغط وحرمان.. وكيف أقف وحدي متحدياً هذا الزحف الرهيب الذي يريد أن يغتال شرفي وكبريائي؟؟

وبدا لي أن الحراب الغادرة تكمن لي في كل مكان، وأن عيون الناس ترصدني أينما سرت، وأن كل امرأة تدخل للفحص الطبي سوف تعاملني بحذر، وقد تفسر حركتي البريئة بأنها عمل دنيء خسيس، بل إن «الغطاريف» من الرجال الشرفاء سوف يرفضون إرسال بناتهم وزوجاتهم إلى المستشفى، فماذا ستفعل رئاستي في دبي، وما هو المستقبل الذي ينتظرني!، إن رأسي يفورُ غيظاً وكمداً، وجو الغرفة قد امتلأ بدخان السجائر حتى أوشك أن أختنق..

وأخذت أستعيد ما قاله عبيد.. رقص.. غناء.. خمر.. ليالي عربيدة حمراء.. نزهات شيطانية في قلب الصحراء.. ولمسات الإثم والمجون... ما هذا الكلام الذي لم أقرأ مثله إلا في الروايات؟؟. هذه الأشياء صنعتها أحلام جائع محروم يستحق قطع رقبته.. وأخذت أدقُّ الحائط بقبضتي المتشنجة.. ثم أخذت أفكر بهدوء.. يجب أن أدرس الأمر بعناية وأبحث عن مخرج..، وليس

هناك من مخرج سوى أن أطلب نقل «فاتسالا» من هنا..
إلى أية إمارة أخرى.. إنها تريد من قبل أن تنتقل إلى إمارة
عجمان أو دبي حيث يسكن بعض أقاربها.. والنقل لن
يسيء إليها.. سوف يحقق رغبتها، وفي نفس الوقت سوف
يريحني من مشاكل لا حصرَ لها ولا عدَّ، ولسوف تخرس
الألسنة الظالمة، وستأوي الثعابين الضالة إلى جحورها،
ويعود الهدوء، وسألح في طلب ممرضة عجوز أو قبيحة
الشكل.. هذا ما قررته وبعدها أتفرغ لحملة الأكاذيب التي
شنُّها «الأعداء» ضدي، وأقضي عليها قضاءً مبرماً... ولم
أنمْ إلا بعد أن دبجت خطاباً كيِّساً لبقاً لرئاستي أطلب فيها
نقل «فاتسالا» قبل أن تفوحَ رائحة الفضيحة المفتراة،
وتنتشر الأقاويلُ النتنةُ إلى بعيد..

❊ ❊ ❊



الفصل الرابع

... استدعيتُ «فاتسالا» في الصباح وقلت لها:

ـ «كنتِ تريدين النقل، وقد وافقت على تحقيق رغبتك، ولسوف يَتِمُّ ذلك في أقرب فرصة..».

أخذتها الدهشة، وبدا الشحوب والضيق على وجهها، وقالت في هدوء متوتر:

ـ «لكني لا أريد النقلَ الآن».

صدمت برأيها، واضطررت أن أشرحَ الأمر بكل تفاصيله. وكم كانت دهشتي عندما سمعتها تقول دون مبالاة:

ـ «فليقولوا ما شاءوا.. إن التهمة إما أن تكون باطلة أو صادقة ـ فليثبتوا دعواهم إن أرادوا، وإلا فلن نرضخ لتلك الحرب السخيفة الظالمة... إنَّ رجلاً مثقفاً مثلك لا يصح أن يرضخ لهذه الافتراءات وإلا فلن تنجح طولَ حياتك..».

كان كلامها معقولاً من الناحية المنطقية الصرفة، لكني اعترضت قائلاً:

- «يجب أن تدركي «يا فاتسالا» طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه.. إن ما أثير حولنا ظلم بيِّنٌ.. لكن السخط العام ضدي يجب أن يعالج بطريقة مَرِنة، ولو كان فيها بعض الغبن أو الرضوخ لطغيان الناس الذي لا يستند على أيِّ أساس..».

فكرتْ لحظات، ثم قالتْ:

- «أتدري من أثار هذه العاصفة؟..».

- «مَنْ؟؟».

- «بيتر.. هذا الملعون..».

- «هذا الناعم الملمس.. الخانع.. الذي يتظاهر بالضعف والمسكنة».

- «لهذا أكرهه..».

لم تمرَّ كلمات «فاتسالا» عبثاً، لقد أثارت في نفسي ذكريات قديمة تتعلق بحياتي السياسية السابقة، أذكر جيداً كيف كان الناس في بغداد يكتسحهم الحماس، ويسيطر عليهم رأيٌ معين، وكنت أجدني أنظر إلى الأمر بعين أخرى غير التي ينظر بها الناس، فأتخذ موقفاً مغايراً نابعاً من تفكيري الخاص، ودراساتي وخبراتي الشخصية، وكانت الأيام تثبت أن رأيي ورأيَ الكثيرين مثلي أصوب من رأي

مهرجي السياسة الذين تحركهم تيارات خفية، وأغراض خبيثة، فيخدعون الناس ويعبثونهم بما يلقنونهم من قيم فاسدة... وكم جر عليّ رأيي الحر، وتصديي للغوغاء من مشاكل ومتاعب منهما الاضطهاد والفصل.. أو الاعتقال أو تحديد الإقامة.. لكني كنت أشعر بسعادة بالغة، وأنا أرى أنني كنت على صواب بعد فوات الأوان.. لهذا أثرت كلمات «فاتسالا» فيَّ، وأثارت كامن التمرد في أعماقي، وجعلتني أغامر بتمزيق الخطاب الذي قضيت فيه ساعةً وأنا أدبجه، وأرتب كلماته كي ينقلوها، وقررتُ مواجهةَ الزحفِ الظالمِ الذي اصطنع من الأكاذيب أسطورة مثيرة تنمو في خيال المراهقين والمحرومين والتعساء.. وكما تصديت للطغيان السياسي في بلدي، يجب أن أتصدى لخداع الجماهير، وافتراءات الأعداء، وأصمد في المعركة شجاعاً، وليكن ما يكون...

وابتسمت «فاتسالا» في سعادة وأنا أمزق الخطاب، لا شكَّ أنها كانت ترمق تعبيرات وجهي، وما يطرأ عليها من تغيرات.. ولا شكَّ أن استجابتي لطلبها قد غَمَرَ قلبَها وروحَها بنشوة كبرى.

***

«مريم» غزال لم يستأنس تماماً، تركل بقدمها كل ما

يرفضه قلبها، وهي تعرف سطوة التقاليد المرعية، وتحترم الكثير منها، ولكن هناك أمور تنكرها بشدّة، لا تحاول أن تعمل عقلها في تفسير ذلك، تنكرها وترفضها استجابة لعواطفها. . تحرق البخور وتتلذذ برائحته الجميلة، وتأخذ نفساً عميقاً. ثم تتطلع إلى الصحراء البعيدة المترامية الأطراف، وترى انطباق السماء على الأرض. . وتهتف: ماذا وراء الأفق من أسرار وأعاجيب. . وتثب إلى خيالها صورة الجنة الموعودة. . . وفيها فتيات يلبسن الثياب الحريرية ذات الألوان البهيجة. . منسدلات الشعور تحت الأشجار الضخمة الخضراء. . يغنين ويطربن ويغتسلن في مياه الينابيع المقدسة. . وفي خيالها ترتسم صورة عبد الله هو الآخر. . كالملك العاشق. توشيه سلاسل الذهب، ويعبق من حوله البخور، ويخطر من حوله حراس القصر وحجابه وجواريه. . لقد خُلِقَ عبد الله لا ليعمل ويشقى ويربي الماعز والأغنام والإبل، خُلِقَ ليكونَ مَلِكاً بلا عمل. مَلِكاً يضع أختامه على الأوامرِ العليا، ويأكل ويشرب وينتشي بخمرةِ الحياةِ. . . قالت لإحدى قريباتها ذاتَ مساء:

ـ «كانت مشاعري نحو خميس ابن عمي ودودة لا تشوبها شائبة. . وعندما أصدرتم الأوامر بالزواج منه. . كرهته. . أصبحت أمقت ابتسامتَه وكلمات التحية العابرة التي يلقيها عليّ كل الصفات الجميلة التي تسبغونها عليه

أمست في نظري نقائص.. وبقدر ما تزيدون في الثناء عليه، يزداد نفوري منه... فسروا الأمر كما شئتم.. هذا ما حدث.. أتدرين لماذا يظلم الناس بعضَهم بعضاً، أو يجرمون في حق أنفسهم؟؟ لأن الحرمان يحرقهم فيتمردون، ويتصرفون بحماقة، والناس يشتهون الحب والمال والسلطة.. عندما تحرمونني من الحب سأشعر كأني متسولة لا أملك شيئاً.. إنني إذ أفقد الحب أفقد كلَّ شيء.. ولا يبقى في قلبي متسع لغير الكراهية لكم.. ولكل الشحوح... تقولين لو سمع أبي هذا الكلام لهشم رأسي.. حسناً.. أنا لم أعد أخاف.. وإني لخيرٌ لي أن تتهشم رأسي وحياتي من أن تسحقَ روحي... تقولين إني مجنونة.. لا.. لست مجنونة.. ولكني لا أرى مبرراً حقيقياً لحرماني من حقي في الاختيار.. وتزعمين أن عصياني سيجعل من اسمي مضغةً في أفواهِ الناس يلوكونه بالشماتة والسخرية.. الناس ليسوا أنا.. وأنا لست الناس.. لكلٍّ عالمُه.. إنه بداخلي دنيا لها ضوابطها ومقاييسُها ولن أرحمَ أحداً ينتهك حرمة دنياي وأحلامي.. تماماً كما يفعل أبي والرجال عندما يغيرُ الأعداء على ديارنا.. ويوم أن أرى أنه لا مفرَّ من الوقوع فيما لا أراه ضرورياً لي، فلسوف أفِرُّ.. أهربُ إلى آخرِ الدنيا.. ولن يعثرَ عليَّ أحدٌ...».

وافق علي زيد زيدون على أن يبعث بابنته إلى الطبيب في رأس الخيمة، ورافقها هو وزوجها المرتقب خميس، كانت الرحلة بالنسبة لها ممتعة، ولم يكن يشوبها سوى وجود خميس، الرجلان يسيران في المقدمة، وهي تمضي خلفهما، على وجهها برقع أسود، تندمج أطرافه في غطاء الرأس والملابس السوداء، ليت الطبيب يستطيع أن يحتجزها في المستشفى بضعةَ أيام، حتى تبعدَ عن جو الخلاف العائلي الصاخب، وتريح نفسها من رؤية خميس، وسماع كلماته المتعجرفة، تلك الكلمات التي يتوهم أنها ترفعه في عينها، وتجعله قريباً من قلبها، ومن يدري؟؟ فقد يتسلل عبد الله ويأتي إليها زائراً في المستشفى، فتنطلق على سجيتها، وتتحدث معه على هواها بعيداً عن أعين الرقباء.. وكلما اقتربت مريم من المستشفى ازداد لهاثها، وصعب تنفسها، حتى أنها لم تكد تبلغُ المستشفى إلا ونوبة الربو كانت على أشدِّها..

قال أبوها:

ـ «عجيب.. لقد كانت منذ ساعة في حالة طيبة....».

وقال خميس في ضيق:

ـ «إنه من أثر التدليل الذي تلقاه منا.

ورمته مريم بنظرة حانقة، كان فيها كل المعاني التي تريد أن تعبِّرَ عنها، ولم تنطق بكلمة واحدة، أما أنا فقد قلت في هدوء:

ـ «أرى من الأوفق بقاءها فترة تحت الفحص والعلاج بالمستشفى. . .» ضحك أبوها:

ـ «لا داعي لذلك. . .».

وأردف خميس:

ـ «تأخذ علاجها وتنصرف».

أما هي فقد قالت بذكاء وهي تلهث:

ـ «لنضع الأمر بين يدي الطبيب، فهو صاحب الشأن. . .».

ثم التفتت صوبي قائلة:

ـ «هل من الضروري أن أبقى هنا يا طبيب؟؟».

الثورة المكبوتة في عينيها، والتوسل الخفي ينبع من نبراتها، وصدرها يعلو ويهبط كأنها في سباق رهيب، وأدرت الأمر على جوانبه، فوجدت أنها يجب أن توضع للمراقبة والفحص لمدة أسبوع أو أسبوعين، فأعلنت رأيي:

ـ «لتبق هنا. .».

قال خميس وقد احتقن وجهه:

- «لا توافق على ذلك.. إنه تصرف شائن لا يقره أحد...».

التفت إليه علي زيد زيدون قائلاً:

- «ماذا جرى يا خميس، لِمَ تقيمُ الدنيا وتقعدها من أجل أمر كهذا؟.. أعتقد أنه من الأصوب تنفيذ نصيحة الطبيب..».

دق خميس الأرض بقدميه في حنق بينما ابتسمت مريم في رضى، وهتف خميس منفعلاً:

- «سأبقى إلى جوارها هنا..».

قالت مريم: «لستُ سجينة، وما أنا بحاجة إلى حارس.. هل لكل المرضى هنا مرافقون...».

وحسمت الأمر قائلاً:

- «غير مسموح بذلك..».

انصرف خميس محتداً، فلم يلتفتْ إليه أحدٌ، وانشغل الأب بما تحتاجه ابنته من مطالب ثم انصرف بعد فترة، وعندما مررت على جناح النساء في الظهر وجدتها مستلقية على سريرها في سعادة قصوى، ونفسها هادىء لا أثر للاضطراب أو الانزعاج فيه..، وعندما رأتني قالت مبتهجة:

ـ «الحمد لله. . . لكأنما انزاح عن صدري حجر كبير، أو صخرة عاتية. . أشعر أن الشفاء يَدُبُّ في أوصالي. . ».

وفي المساء أحضرت لها بضعة مجلات قديمة بها حشد من صور الرجال والنساء الملونة، وكانت فرحتها بها لا توصف، وسرعان ما انتزعت بعض الصور ولصقتها بالحائط فوق سريرها، وهي تنظر إليها بإعجاب طفلة نمريرة يمتلىء قلبها بالغبطة والرضى. .

الجو هنا متقلب غريب، شديد الرطوبة، مرتفع الحرارة، والسماء مغبرة، والبحر ساكن لا تلامسه نسمات، «وفاتسالا» معتكفة أغلب الوقت في حجرتها، لا تظهر إلا ساعة العمل أو عندما أطلب استدعاءها لأمر ما، وموجة الشائعات أخذت حدتها تخف كثيراً لقد خرجت إلى الشارع. . واجهت الأكاذيب. . ، شرحت الأمر لشيوخ الإمارة فاقتنعوا، وخطيب المسجد ألقى خطبة عصماء في صلاة الجمعة عن الذين يرمون المحصنات من النساء بالتهم الكاذبة، وعقوبة ذلك عند الله، وحذر من التمادي في هذا العبث، وتوعد المخطئين بنار جهنم والعقاب في الدنيا والآخرة. . لكني في الحقيقة دبرتُ عقوبةً من نوع مؤلم للسيد (بيتر) فقد تسببت في نقله إلى مكان بعيد، لعلَّ ذلك يعلمه كيف يعف لسانه عن الأكاذيب والأراجيف، وعاد

الهدوء إلى المستشفى، ولاحظت تقدماً باهراً في صحة مريم، ولم تعد تداهمها النوبات، كَسَت الحمرة وجهها الأسمر ودبت فيها حياة ونشاط غريبان، الضحكات الطروبة الساذجة تتألق في عينيها، وتضرب عرض الحائط بقوانين المستشفى، فتخلع ملابس المرضى، وترتدي ملابس ملونة مذهبة، ويلمع حول عنقها عقد من الأحجار الكريمة وهلال كبير من الذهب، ويتدلى من أذنيها قرط ذهبي كبير، وتحرص على صبغ أهدابها بالكحل الأسود الذي يزيدها فتنة وجاذبية. . . هي تكره كثيراً من النظم المتبعة، فأراها أحياناً تجري في حوش المستشفى، أو تذهب إلى المطبخ لأنَّ الطعام لم يعجبها فتجري عليه بعض التعديلات، وقد تأتي بالراديو وتفتحه لتستمع إلى أغانيه دون نظر إلى راحة المرضى، فكنت أعاتبها في رفق، دون أن أجرح مشاعرها والحقيقة أنها كثيراً ما كانت تستجيب لنصائحي. .

دق بابي في إحدى الليالي، وخرجت لأفتحَ فإذا بها أمامي، وهذا شيء يزعجني ويسبب لي كثيراً من المتاعب، وما إن فتحت الباب حتى اندفعت إلى الداخل. . قلت في ارتباك:

ـ «هذا ممنوع. . ».

ـ «جئت لأستنجدَ بك. . . ».

ـ «اذهبي وسآتي إليكِ في جناح الحريم..».

لم تعر كلماتي اهتماماً، وقالت في غيظ:

ـ «إنه يجلس بباب المستشفى لا يفارقه.».

ـ «مَنْ..؟؟».

ـ «خميس ابن عمي..».

ـ «وماذا أفعل؟».

ـ «تطرده.. لا أريده هنا.. بقاؤه هنا يقتلني. يزيد من مرضي وعذابي..».

ـ «اذهبي الآن وسآتيك بعد لحظات..».

وما إن رددت الباب حتى سمعت صراخاً وصياحاً، فأسرعت إلى الخارج بملابسي المنزلية... رأيت خميس يجذبها بعنف، ويلوي ذراعَها ويسدِّدُ إليها لكماتٍ قاسية:

ـ «لسوف آخذك إلى الجبل برغم أنفك..، هذا العهر لا يمكن السكوت عليه.. نومك في المستشفى عارٌ ومسبةٌ أيتها الفاجرة..».

فصلت بينهما، ثم أمرتها بالذهاب إلى سريرها والتفت إلى خميس قائلاً:

ـ «إذا لم تخرج استدعيت لك الشرطة.. ليس هذا

موعد الزيارة.. تفضل..».

لم يجادل، وانصرف في خجل ممتزج بالضيق، كان يخطو كفارس مهزوم، ورأيت الحارس يدفعه إلى الخارج في غلظة، فلم يعترض، ومن ناحيتي يجب أن أضع حَدّاً لهذه المشاكل الوليدة قبل أن تستفحلَ، وجاء أبوها في اليوم التالي، وعلم الرجل بما جرى، وكان واضحاً أنه قد بدأ ينقم على تصرفات خميس، ويرى فيها تشهيراً بابنته، وقدحاً في كرامتها التي هي جزء من كرامته، فما كان منه إلا أن استدعى خميس الذي يقف بالخارج، ثم صرخ فيه محتداً:

ـ «لا أريد أن أرى وجهك هنا مرةً ثانية..».

❊ ❊ ❊



الفصل الخامس

وعندما انصرف خميس قلت:

ـ «أما زلت مصراً على زواجها منه؟..».

ـ «هذا أمر مفروغ منه، ولا مراجعة فيه، من تتزوج غيره؟..» لقد قلت وانتهى الأمر... لا أحبُّ الرجوعَ عما اتخذته من قرارات... الترددُ مضيعةٌ للوقت، ونقصانٌ لهيبتي، وبرهانٌ على ضعفي.. وأنا سيدُ القبيلة تعلمت أن أحسمَ كلَّ شيء دون تردد..، إذا أردت أن تكونَ رجلاً بين الرجال لا تتذبذب، وسر دائماً إلى الأمام، وكن واثقاً بنفسك.. ولا ترجع حتى ولو كنت مخطئاً... بذلك تسير الأمور على الجبل سيراً حسناً في كافة القبائل المجاورة وتنحنح في شيء من الضيق، واستطرد:

ـ «لا تسمح لذلك الصعلوك عبد الله أن يقترب من باب المستشفى إذا حدث وأتى إلى هنا ووقعت عيناه على مريم فلسوف يسيء ذلك إليّ إساءة بالغة.. وعندئذ

سأجدني مضطراً لذبحه كما تذبح الشياه..».

وتضايقت أشدَّ الضيق بعد يومين عندما علمت أن مريم تسللت من المستشفى وذهبت إلى سينما «رأس الخيمة»، ماذا سيقول أبوها؟.. إن المسئولية معلقة في عنقي، وربما كان ذلك التدبير بالاتفاق مع عبدِ اللهِ الملعونِ، وقررت دون تردد إخراجها من المستشفى حتى أريحَ نفسي من هذه المشاكل، وحينما استدعيتها إلى مكتبي كانت البهجة تطفر من عينيها والسعادة تتوهج على جبينها، وتذكرت الجنة العذراء في أرض الخيال الخضراء المزهرة.... أغمضت عيني، وقلت متشجعاً:

- «أين كنت بالأمس؟».

- «رأيتُ قصراً رائعاً... ونساء كقطع الحلوى.. كان الرجال يقبلون أيدي النساء تصور..!! ويعاملونَهُنَّ برقةٍ غريبة... وكانت المرأةُ تأمر فتجاب إلى طلبها، وكأنها ملكة تحكم... وكان الرجال يطلقون الرصاص، ويموتون من أجل امرأة.. أقول الحق.. كانت جميلة.. لكنها نحيفة... موائدهم عامرة بالطعام والشراب.. كانوا يرقصون بلا حرج.. حرية بلا قيود... في أي عالم يعيش هؤلاء؟؟ ولماذا لا نعيش مثلَهم... أريد أن أرى هذه الأشياء بنفسي وألمسَها بيدي.. إنه حلمُ حياتي.. قلت له «يا عبد الله..».

صرخت عند هذه الكلمة من عبارتها قائلاً:

- «هل كان عبدُ الله معك؟؟».

- «للأسف كان مذهولاً شارداً.. عبد الله جبانٌ رعديدٌ يخاف من أبي.. كان يرتجفُ طوالَ الجلسة، ويتلفتُ يَمنةً ويَسرةً.. إنني أحتقرُ الخائفين الجبناء.. ومع ذلك فما زلت أحبُّه..».

قلت وأنا أتصبب عرقاً:

- «سوف تخرجين من المستشفى اليوم..».

نظرت إلي في دهشة، وكأني أصدرت حكماً عليها بالإعدام، وصرخت والدموع تملأُ عينيها:

- «مستحيل».

- «لقد تحسنتْ حالتُكِ، وسأعطيكِ العلاجَ اللازمَ..».

- «إنك تقتلني..».

- «ليس في الإمكان أن تبقى بالمستشفى إلى الأبد، ثم إنك تتصرفين دون مراعاة للدين والعرف».

- «لو أخرجتني لقتلتُ نفسي..».

يا للكارثة!! لا أخرج من مأزق إلا وأنزلق إلى ألعن

منه، ما لي وهذه النكبات، أيُّها الشيطانُ المستترُ في أعماقي المظلمة، ما لي أراك تنظر إلى العيون الجميلة، وقد أغرقتها الدموع، فتتوثب وتملأ نفسي بالرغبات، وأجدُ بداخلي رغبة عجيبة في بقائها بالمستشفى.. لكن «فاتسالا» تصر على خروجها.. «حسناً لن تخرجي يا مريم، تستطيعين أن تبقي معنا أسبوعاً آخر...».

وأخيراً بعدَ أسبوع رحلت مريم إلى الجبل، كان ذلك رغماً عني، فمع أنني كنت قد أخبرتها بالخروج عقب أسبوع، إلا أنني لم أنفذ ما اتفقت عليه، لكن أباها أتى، وأصدر أمره دون مناقشة:

- «هيا بنا يا مريم.. لا معنى لبقائك هنا أكثر من ذلك، بعد أن تحسنت حالتُكِ.. لا تقاطعيني فلن أسمحَ لكِ بالبقاء..، وحينما يصدر أبوك أمراً، لا يكون هناك مجالٌ لغير الطاعة..».

طأطأت رأسَها في ذِلَّةٍ، وجمعت حاجتَها، وخطت إلى الخارج، لم ترفع عينيها عن الأرض، كانت تسير كأميرة أسيرة وقعت سبية في يدِ غازٍ من الغزاة الجبارين، لكأنما كانت تساق إلى الموت، لم أدر ماذا كان يعتمل في رأسها الجميل، ومضى أبوها خلفها وفي يده عصاة...، كان يبتسم في سعادة ينظر إلى الأمر في هدوء وبلا انفعالٍ، فمن البديهي أنَّها لن تقيمَ بصفة دائمة في المستشفى،

ولا بدَّ أن يعودَ الطائر إلى عشه، والقبيلة تكره الشاردين والشاردات، وتقوم وتقعد من أجل شاةٍ فُقِدَتْ.. وإلى جوار الأب مضى خميس ابن العم، كان ينطلق وعلى وجهه شماتة لا يستطيع إخفاءها، يستشعر مذاق النصر، ويخيل إليه أنه أتى عملاً بطولياً دون أن يحركَ سيفاً.. أو يقولَ كلمةً واحدةً، الحقيقة أنني كرهت خميس كما تكرهه مريم، لا أطيق نظراتِه ولا عنجهيته الفارغة، ولا كبرياءه التي لا تنهضُ على أيِّ أساس..

هناك نوع من الرجال يضايقني أشدّ الضيق أن أراه يتزي بزيّ الرجال العظماء الشرفاء، حتى ولو كان منهم.. وهناك فئة من المساكينِ الفقراء تبدو على سيماهم ملامح العظمة والكبرياء مع أن ظروفهم العامة لا تؤهلهم لهذا الموقف، وأنا لا يهمني ما يحيط به الرجال أنفسهم من مال ورجال، وما يرتبطون به من حسب ونسب، إن ما يهمني هو الإنسان نفسه، خميس تافه سمج حقير، مهما كان حسبه ونسبه ومركزه في القبيلة، ومريم أميرة بكل ما تحمل هذه الكلمة من إيحاءات وظلال ومعان.. أنفها الشامخ.. ابتسامتها الذكية الملوكية، وبساطتها العظيمة ونظراتها المتألقة الآسرة، وكلماتها القوية المتحررة، حتى انحناءاتها وخضوعها أمام سطوة أبيها تجعل منها إنساناً أقوى وأعظم وأشرف من خميس القميء المتعجرف... يا إلهي أين

تعلمت ذلك وهي تعيش معزولة مع قومها في الجبل.

...شعرتُ بضيق بعد انصرافها، الناس يدخلون المستشفى ويخرجون، والأمر يمضي دائماً دونما انفعال يذكر، لكن دخول مريم وخروجها كان له آثار أخرى، وترك على نفسي بصمات من نوع غريب.. أنظر إلى وجوه الداخلين من المرضى فيخيل إليّ أنها تنتصب قُبالتي، وأرى الخمار الأسود على وجه أية امرأة، فتتألق من ورائه عينا مريم، أسمع صوتاً نسائياً في الخارج، فيلتبس علي أمره وأتوهم أنها هي... شيء غريب.. هذه الفتاة البدوية التي يفصل بيني وبينها مسافات طويلة، بل قرون مديدة من الثقافة والتقاليد، ومع ذلك فإن الأمر ليس غامضاً تماماً، هناك شيء يلتقي عنده الناس برغم تفاوت الفكر والمدنية... شيءٌ يرتكز على التفكير.. الحب.. أو الإعجاب.. المرض.. الخوف.. هنا يتوارى المرض، وتخفت ضراوة التقشف، وينام حرص الزهاد، وينمحي الخوف من الرئاسة والناس، وينطلق القلب متحرراً من كل القيود، لقد خلق الله القلب حراً.. الشجعان وحدهم هم الذين يفكون قيود أنفسهم، ويفسحون الدنيا ليتألقَ القلب، ويقول دونما خوف لا أو نعم... أما العقلاء ـ أعني الجبناءَ ـ فهم القادرون على إبراز الكبت كفضيلة... ماذا جرى لي؟ كيف أفكر بهذه الطريقة؟؟ يبدو أنني أصبت

بلوثة داخلية، برغم وقاري الظاهر، وردائي الأبيض، وابتسامتي التقليدية.. ومع ذلك فإن الحقيقة التي تنتصب قُبالتي.. هي أن مريم ذهبت، ولحن هندي حزين يترنم في أروقة الروح الفسيحة.. أصداء مكتئبة تنهمرُ كالدموع على قلبي المضطرب.. انفرط كل شيء وكشفت الحقيقة عن وجهها.. السفور يصفع كذبي ونفاقي وأنا خريج مدرسة السياسة في بلدي التَّعِس.. حيث يصفقُ الناس وقلوبهم تلعن من يصفقون له، وحيث تنشق الحناجرُ بالهتافِ الصاخبِ لكلِّ جبَّارٍ عنيد... والسياسة فن، والفن يعني هنا الكذبَ والابتساماتِ الزائفةَ والانحناءاتِ المرسومةَ، والكلماتِ المنمقةَ التي لا تشع إلا عاراً وخطيئة... حسناً.. يبدو أنني أحب «مريم». بنت البادية... أحبُّ فيها الشجاعة التي أفتقدها، والتمرد الذي أرهبه، والجمال الفطري بلا تزويق، وألوان وأصباغ.. أحبُّ فيها مجموعة من الفضائلِ حُرِمْتُ منها طويلاً.. قسماً بالربع الخالي، وأطلال القدماء، وحداء الإبل، والرجز الوحشي على السفوح حيث يشعل الدماء.. قسماً بكل ذلك إني أحبها.. ودخلتْ فجأة «فاتسالا» وهي تنظر إليّ في شكٍّ وقالت:

ـ «ذهبت إلى الجحيم..»... قلتُ في شرود:

ـ «وكيف تذهب الجنة إلى الجحيم؟!».

اكْفَهَرَّ وجهُها، وغمغمتْ:

ـ «ألا تفهمُ أنَّ للمرأةِ كرامةً؟».

ـ «ما أهنتُ كرامةَ أحدٍ..».

ألقت ببعض الأوراق والوصفات على مكتبي، وقالت:

ـ «وقِّع بإمضائك..».

تجري عيناي على قائمة طويلة من الكحول والأسبرين والسلفاد يازين وحقن الكورامين والأتروبين والبنسلين، وطوال قراءتي للقائمة أرى عينين تلمعانِ بالدموع، وأهداب مريم.. آه كالرماح المشرعة تتحدى مدينة الخوف والأكاذيب.. وابتسامتها تضيء السطور كالأضواء الكاشفة التي تنير السماء..، وتبحث عن الطائرات المعتدية أو ترشد الطائرات القادمة من سفر طويل.. كوني أيَّ شيء يا مريم... فإنك حقيقة مذهلة دخلت قلبي..، تسللت إليه في خِفَّة، وغزت كلَّ عصب فيه...

يا أميرة الجبل الصامت الصامد الذي يتحدى عوامل الجفاف والفقر والقيظ الشديد كوني بدويةً ساذجة، أو طفلةً غريرة متمردة، أو صبية ناشزاً.. أو جاهلة مجنونة... أيَّ شيء، فإن أريجَك المتضوعَ المتوهجَ قد سَلَبَ لُبِّي، وتمكَّنَ من سُويداء قلبي.. ولحنك الغجري يدق في عنف

فيشعل النار في دمائي ويجسد حرماني الطويل..

ـ «ماذا كنتَ تقصد ببقائها هنا؟».

ـ «العلاج.. يا «فاتسالا»...

ـ «لكنها كثيراً ما كانت تقذف بالأدوية في سَلَّةِ القمامة..».

ـ «هل من الضروري يا «فاتسالا» أن يكون العلاج عقاقير؟ تغيير الجو الاجتماعي.. الكلمة الطيبة.. الثقة التي يبثها الطبيب في قلوب مرضاه.. كلها تشكل ألواناً أخرى من العلاج..».

قالت «فاتسالا» وهي تلوي شفتَها السُّفلى:

ـ «تستطيع أن تذهب إلى مصحٍّ للأمراض النفسية، فيعالجونها فيه.. ليس لدينا وقت لهذا الصنف من المرضى..».

ـ «حسناً.. هذا شيء أُحدِّدُهُ أنا.. ومع ذلك فقد خرجت..».

وأرى بعين الخيال شبحاً رقيقاً يصعد الجبل، العيون الجميلة خلفَ الخمار، والشفتان المزمومتان تسجنان الكلمات الحلوة، وأبوها وراءها، وخميس يَدُبُّ كقرد، تبهجه الشماتة والنصر الحقير، وطائر النورس يحلق قرب

الشواطىء، ويرفرف بجناحين نظيفين تبللهما الرطوبة..
ونخلة عتيقة تهتز بطيئاً، وشياه وماعز متناثرة في عرض
الصحراء تبحث عن نبتة خضراء.. لكن الحياة تشتعل بقوة
فوق هذا الجفافِ والحرارةِ التي تصهر الأبدان، والينابيع
تتحدى الجفاف بتدفقها الرصين..

وفي هذا القفر تنبت زهور عجيبة... مريم زهرة
برية حادّة الأريج.. تشدني إليها بقوة جذب هائلة لا
تقاوم... كيف مرّت تلك الأيام وهي إلى جواري دون أن
أتحركَ.. كان يجب أن أفعلَ شيئاً.. أن أعبّرَ عن أشواقِ
الإنسان في قلبي المحترق.

ـ «فاتسالا».. أنا متعب.. وأريد أن أستريح
ساعتين.. هل بقي أحد من المرضى؟».

ـ «لا..».

قالتها في إيجاز، واستدارت ثم مضت خارجة، لم
أجد لديَّ أدنى رغبة في مراضاة «فاتسالا» أصبحتُ أرفضُ
هذا النوع من الاعتذار، ولماذا أعتذر؟؟ إنّ أبسط الأشياء
أن تكون حرَّ التفكير، منطلقَ العواطف، وتصرفات
«فاتسالا» تذكرني بأيام السجن الحزينة، والقضبان الصدئة،
وطباخ السجن بقدوره القَذِرة التي تمتلىء بالعدس، أصبح
العدس مرادفاً لكلمة السجن.. والقضبان.. والحرمان..

لا أريدكِ يا «فاتسالا» أن تكوني مرادفاً جديداً للعدس، وأضحكُ ثم أكْفَهِرُ في أقصر وقت.. تلك حقيقتي مع أن ابتسامتي قد تنسحب على اكفهراري، فأبدو وكأني لم أزلْ في أوج سعادتي مع أني أبعدُ ما أكون عن مظهري.. وقد مللت هذه اللعبة..

ـ «فاتسالا».. «فاتسالا».. تعالَيْ.. لا تتدخلي في شؤوني مرةً ثانية، ترقرقت دمعة في عينيها، وجرت قبل أن تنفجر باكية... وتنهدتُ في شيء من الارتياح أو ما يشبه الارتياح...

يا للغربة القاسية الجافة!!

في الماضي كنت ألجأ إلى أبي العالمِ الجليل، أسأله عما يكربني أو يحيرني، وألتمسُ من حنانِه جرعات أروي بها ظمأي، وأهدىء بها من تمردي، كان دائماً يحدثني عن الله.. ويؤكِّدُ لي أنَّ الإيمان علاجٌ لكل داء، وأن الرضا سعادة، ويفيض في شرح ألاعيب الشيطان، وكيف يتسلل إلى قلب المؤمن.. كنت أتذكر كلماتِه الصادقةَ حينما ساقوني إلى سجن تحت الأرض وأتذكرها والسياط تلهب جسدي، والغيظ يأخذ بمجامع نفسي، وأنشد الموتَ فلا أجده، كلماتُ أبي كانت زادي في رحلات الشقاء المتتالية.

قال لي ذاتَ مساء:

ـ «المحن هي توابلُ الحياة».

ـ «لكنها صعبةٌ يا أبي».

ـ «وهي التي تصهرُ سعادة الرجال، وتكشف عن معادِنهم».

ـ «نحنُ كالعبيد يا أبتي».

«أيْ بُنَيّ «الحرية هي وجودك».. إنها في داخلك لا تموت.. والسياط تزيدها اشتعالاً».

ـ «نتحدث كثيراً عن الحرية يا أبي ولا نراها».

ـ «دليل وجودها تلك الآثار على جسدك.. لقد خلقها الله فينا.. هي في دماء المؤمن» وعندما قررت الهجرة، تسللت عبر الحدود هارباً بجلدي ومعي أوراقي لم يمانع أبي في ذلك، وأوصاني بأن أعيش حياتي بالأسلوب الذي أراهُ بشرط واحدٍ وهو ألا أخرجَ عن منهج الله أقرأ القرآن، وأحذر الشيطان.

وعندما علمت أنهم قتلوا أبي ضمن من قتل من العلماء أصابني اضطرابٌ هائلٌ، واهتزت كلُّ قيم الدنيا في رأسي، خُيِّلَ إليَّ أن العالَم كلُّه يتواطأ ضد الشرفاء والأحرار، لم أجد من يأخذ بثأر أبي، شعرت بتضاؤل قاتل.. فمن يكون أبي ومن أكون؟ أفراد في جيش النمل الكبير الذي تسحقه أقدام السائرين في دنيا الله الواسعة

الكبيرة.. حاولت أن أعود لأثأر.. ضحكت.. أصابني اليأس.. الحرية التي خلقها الله في دمي يبدو أنها تذوي.. تتبخر.. تفنى.. في صومعتي برأس الخيمة أحاول أن أقرأَ القرآن.. نظراتي تزوغ بين السطور.. وأرى عينَيْ أبي تلومُني وكأنه يَلُحُّ عليّ أن أستمرَّ في القراءة.. «فاتسالا» تأتي.. تأخذني.. هي كالأقراص المهدئة لأعصابي المتوترة، تلك الأقراص التي ألجأ إليها عندما يشتد بي الكرب.. قرص.. وجرعة ماء.. وبعد ربع ساعة أشعر بالهدوء.. ثم ألجأ إلى نومي المليء بالكوابيس والأشباح.. أكاد أقتنع أن «فاتسالا» لن تستطيعَ شفائي مما بي.. إحساس عميق يُداهمُني بأنَّ مريم الغزالة البرية هي العلاج الحاسم..

يا أبي، نَمْ هانىءَ الروح في قبرِك المجهول، إن ابنَك لم يرتكبْ إثماً...

❀ ❀ ❀



الفصل السادس

أصبحت مريم ضائقةَ النفس بكل ما حولها. . .
العالم الواسع الذي وُلدت ونشأت فيه بدا لها ضيقاً مملاً، ترى خميس قادماً من بعيد بقامته القصيرة، فتدعو الله من أعماقها أن تنشق الأرض وتبتلعه، وتبصر بأبيها فترى في عينيه الحب العميق، والخوف المستكن، والقلق الواضح، ونساء القبيلة تشعر إزائهن بالنفور الممتزج بالعطف، تهُبُّ من نومها ضيقة الصدر فتغادر خبائها، وتنطلق إلى شعاب الجبل حيث الصمت والليل والهواء المنعش، وقد يمتد بها السير حتى يطلع الفجر أو تشرق الشمس. . . تمضي وكأنها تشاهد قصة سينمائية على شاشة من الوهم. . ، وذات مساء كان عبد الله ينتظرها. . ، مشت إلى جواره صامتة، وأخذ يروي لها كيف أن ابنَ عمها يسيء إليه، ويتعمد توجيه الإهانات له، وهو يأنف من الردِّ عليه، ويتحاشى الصدام معه، حفظاً لوحدة القبيلة واستقرارها، والناس يطاردونه بالغمز واللمز، فلو كان ابن شيخ القبيلة ـ أو واحداً من

رجالها الكبار ـ لما جسر أحد على النيل منه، أو التعرض له بأذى، لكن هكذا الناس، لا يكترثون لمعادن الأفراد بقدر اكتراثهم بوضعهم القبلي، وقالت مريم وهي في طريقها:

ـ «تستطيع أن تكون شيئاً..».

قال في ثقة وانفعال:

ـ «أنا سيِّد الجميع».

ـ «هُراء».

ـ «إنك مثلُهم تطعنين كبريائي».

ـ «لكي تكون رجلاً، يجب أن تتحدى».

ـ «أتحدى أباك».

ـ «تتحدى كل الظلم والأنانية».

ـ «من أجلك أنت يا مريم أعتصم بالصبر والتسامح..».

ـ «لا.. إن ما تفعله يمزق ما بيننا من أواصر..».

أمسك بيدها، رنت إليه بطَرْف حائر، ضمَّها إلى صدره، تململت قليلاً، ثم استسلمت، طبع على وجهها قبلة حارة، وهتف:

ـ «لن تستطيع قوة أن تنتزعك مني..».

سكنت معارضتها، وانتشى قلبها البكر لكلماته القوية، وتحسست ذراعيه المفتولتين، وتمتمت:

ـ «تستطيع أن تكون في مركز أبي».

مسح بأنامله المرتعشة على رأسها وعنقها، وتمتم:

ـ «حينما تكونين معي أشعر أني أملك الدنيا كلَّها... إنني أحلم باليوم الذي نمتطي فيه ظهرَ بعيري، ثم ننطلق سوياً في عرض الصحراء باحثين عن واحة جميلة ننعم فيها بالحب والحياة..».

خلصت نفسها من بين ذراعيه، ومضت إلى الوراء خطوة وتمتمت:

ـ «تريد أن تهرب».

ـ «ما دمت معي فكل شيء يهون..».

ـ «لذتي الكبرى في أن أبقى هنا.. وأن يرى الجميع أننا حققنا إرادتنا وأصبحنا زوجين برغم التحديات..».

ـ «أما أنا فلا أكترث بغير الجوهر.. ما أعنيه هو أن نكون معاً.. بصرف النظر عن المكان والزمان، إنهما خلفيات لا معنى لها..».

قالت بامتعاض:

ـ «وأنا أخالفك الرأي. . نحن مع الزمان والمكان شيء واحد. . روعة الحب في التحدي».

تنهد في حسرة:

ـ «معنى ذلك أن نخوض حرباً وأن تسيل الدماء. .».

ـ «فليكن».

ـ «وقد يسيل دمي أو دم أبيك. .».

اقتربت منه وبرقت عيناها في ضيق، وهتفت:

ـ «أنت جبان».

جذبها من يدها في عنف، وقال:

ـ «أنت تعبثين. . أشك في أنك تحبينني. . أنت تريدين أن يقال سالت الدماء على جبل الشحوح من أجل مريم. . الشباب يتصارعون من أجل مريم. . وتريدين أن يتردد اسمك على الأفواه. . وأنا أريد الحب. . أريدك أنت أيتها المجنونة. .».

قالت في شرود:

ـ «لست جارية لك. .».

ورفعت عينيها إلى الأفق المرصّع بالنجوم اللامعة، وتمتمت:

ـ «إنه رجل رائع.. ذاك الطبيب في رأس الخيمة.. كان يجيب على أيِّ سؤال.. عنده علم الدنيا والآخرة.. أحياناً كان يقول لي بكل تواضع: أنت على حق يا مريم.. وكان يعارضني في بعض الأحيان لكن لا أشعر قط أنه يتعالى عليَّ.. كان لطيفاً.. طليق الوجه، يضحك من كل قلبه.. أو يستسلم لحزن عميق.. وكان لكل رأي يُبديه أسبابه الوجيهة..».

قال لي..: «إنني أعشق الحياة عندكم في الجبل..» ما معنى ذلك يا عبد الله؟! امتعض عبد الله، وأخرج من جيبه «مدواخاً» ـ بايب صغير ـ ودسَّ فيه قليلاً من التبغ، وأخذ يجذب أنفاساً سريعة قصيرة، وتمتم:

ـ «إنه لا يعرف شيئاً عن حياة الجبل.. هل يستطيع أن يعيش بغير الثلاجة والطباخ ومكيفات الهواء؟؟ هؤلاء الناس أكذب الخلق طُرّاً..».

واقترب منها، ولمس يدها في حنان، وقال:

ـ «لماذا نذهب بعيداً.. لنعش حياتنا الحلوة في غفلة من الرقباء».

كلما لامسها، ولفح وجهها بأنفاسه، وهنت قواها، وخفق قلبها، إن له تأثيراً غامضاً يذيب مقاومتها، ويذهب عنادها، والغريب أنها تجد في ذلك كله راحة كبرى، لكن

سرعان ما تهب رياح القلق والتمرد، فتفسد عليهما روعة اللقاء، ومتعة الوحدة، وهمست:

- «لشد ما أحبك يا عبد الله..».

هتف وهو يحتضن راحتيها بين كفيه:

- «من أجلك أنت بقيت هنا.. أصبحت الحياة لا تطاق.. وفي المدينة سواء دُبي أو الشارقة أو رأس الخيمة أو الكويت.. قد يجد الإنسان العمل والحياة المريحة.. لكني بقيت من أجلك أنت يا مريم..».

رفعت إليه وجهاً مبتهجاً، يتألق في هدوء تحت ضوء النجوم:

- «وإذا هربنا فأين نذهب؟؟ لقد زعمت أنك تريد أن نبحث عن واحة..».

- «لا أعني ذلك بالضبط.. أريد مكاناً أميناً ننعم بالحياة فيه..».

قالت وهي تنظر إليه في خوف:

- «ألن تتخلى عني قط»؟

- «من منا يستطيع أن ينسلخ عن روحه».

تنهدت في ارتياح.. «كنت أفكر فيك، وأنا في المستشفى... وأتخيلك تدور حول أسوارها، وتسترق

النظرات عبر النوافذ، ثم تقذف بنفسك من فوق السور وتأتي إليّ.. وأشعر بفيض من السعادة لا يوصف وأنا أتخيل تلك المشاهد ويوم أن تسللت من المستشفى وذهبنا إلى السينما، كنت أشعر أننا نخطو على هام السحاب.. وأننا نعلو.. ونعلو.. فلا يستطيع أن يلحقنا أحد.. تضايقت منك وأنت مندمج في مشاهد السينما.. كنت تنظر إلى الممثلة وكأنك تريد أن تلتهمها بعينيك الجائعتين.. يومها خفت منك..».

قال عبد الله في سعادة:

- «كنت أتوهم أنها أنتِ..».

- «لكني كنت إلى جوارك».

- «أريدك ملكة الدنيا.. أريدك أكثرَ مما أنت عليه في الواقع..».

- «لي الويل من هذا الطموح..».

الدِّيَكَةُ تصيح، والفجر يوشك أن يوشح القمم، والكلاب تنبح وهما جالسان متجاوربن، وتمدد عبد الله، واضطجعت مريم والعيون معلقة بالسماء التي وشحها ضباب خفيف، وشعرت ببرودة في أطرافها حينما تقلب في اتجاهِها.. هبت واقفةً، وخفقاتُ قلبها تضج خلفَ الدموع، وهتفت:

ـ «ماذا تريد. .»؟

سعل دونما حاجة للسعال، ولم يَرُدَّ بكلمة، قالت هادرة:

ـ «أنا أكره اللصوص. .».

ـ «نحن شيء واحد».

ـ «بل اثنان». .

ـ «إن الشيطان قد ركبك يا مريم. .».

ـ «أريد أن أعطي في ضوء النهار. . وفي الحلال».

ـ «قد يطول الليل يا حمقاء، ولا ندرك الصباح أبداً ما دامت القبيلة هي القبيلة، وأبوك حيٌّ يرزق». .

أمسك بها عنوة، وهتف:

ـ «أنت تخافين والخوف نقيض السعادة».

يا ويحها، تشعر بمقاومتها تضمر، وقواها تتخاذل وبرودة أطرافها تتحول إلى حمى مشتعلة. . غير أن صوتاً قريباً تردد صداه في الصمت والظلام:

«يا عيضروس يا عيضروس. . يا عيضروس. . يا عيضروس

يا محيي النفوس

خلي السحاب يمطر لبن. .».

هبت واقفة تنظر إليه في غضب، بينما أخرج «مدواخه»، وأشعله من جديد وعاد إلى الأنفاسِ السريعةِ القصيرةِ التي يجذبها، وأعطته ظهرها وولت مدبرة. . الفتاة تعيش في القبيلة بوجهين، وجهِ تلقى به الناس والحياة العامة. يقدس كل ما تؤمن به القبيلة من قيم وأخلاق وتقاليد، ووجهِ آخر تخلع عنه القناعَ، وتبدي ذات نفسها لصديقاتها المقربات أو أصدقائها، وفي داخلها تحيا حياة يتقاذفها التردد، والخوف والتمزق، وليس هناك حدود فاصلة تقسم بدقة تلك الصورة الداخلية أو الصورتين الخارجيتين، فالنساءُ يتفاوتن عمقاً وسطحية، قرباً أو بعداً، من تلك الحقيقة الهامة في دنيا القبيلة. . ومريم برغم خضوعها لمواصفاتِ القبيلة وأخلاقياتها، إلا أنها كانت أكثر جرأةً، لما حظيت به من التدليل في صغرها، ولكونها ابنةَ شيخ القبيلة علي زيد زيدون، ولجمالها الأخّاذ، وقد يغتفر الجمال لصاحبته كثيراً من الهنات أو الأخطاء، وقد يبيح لها بعض التصرفات الاستثنائية التي لا تتاح لغيرها من الفتيات، بل لعلّ أباها كان سعيداً في قرارة نفسه وهو يرى الصراعَ الدائرَ والخفيَّ من أجلِ الفوزِ بابنته. . ولقد ضحك علي زيد كثيراً عندما عرض عليه مطوع القبيلة «حسن بن محمد» أن يتزوج من مريم حسماً للنزاع، وتجنباً للشقاق الذي يكاد ينسف أمن القبيلة واستقرارها، وقال المطوع حسن:

ـ لماذا تضحك يا علي؟؟ إنني فوق الخمسين لكني أستطيع أن أنهض بحمل ناقة.. أستطيع أن أسحق خمسةً من الرجال.. وأنا مصدر البركة، وينبوع العلم والمعرفة في أرضكم.. وإرضائي من إرضاء الله.. وأنا أقف بإيماني وعلمي على الأبواب التي تتسلل منها الشياطين.. وتمتم علي: «أنت الخيرُ والبركة..».

أدرك «المطوع» أن شيخ القبيلة لم يتلق الأمر بقبول وجدية، وهتف في غيظ:

ـ «إنني أنذركم.. إن ابنتّك تحمل لأرضنا الخراب، وسوف تهب من ناحيتها عاصفة الخلاف والفتنة..».

أحنى علي زيد زيدون رأسه وتمتم:

ـ «إنك تهول في الأمر، وما هي إلا بضعة أسابيع وتتزوج من ابن عمها، وينتهي كلُّ شيء».

تلفت المطوع حواليه..:

ـ «الإثم ينشر سمومه في كل اتجاه.. والفساد يعمُّ الدنيا، إنني أَشَمُّ رائحة العار».

ـ «الدنيا بخير يا مطوّع».

ـ «لا خيرَ في أرض يعصي نساؤها رجالها، ولا يحترم جهالها علماءها».

أدرك علي ما في كلام حسن من اضطراب وخلل، وأخذ يشرح كيف أن النساء لا تعصي الرجال، وكيف ينزلن على إرادتهم، وأن للعلم وقاره واحترامه.

وكان علي يعلم أن مطوع القبيلة لا يجمع في عقله علماً يذكر، بل إنه خليط من السحر وقليلٌ من محفوظ القرآن، وبعض الأحاديث النبوية، والآداب الشرعية، ونتفاً من السيرة النبوية لا تصل بالرجل إلى العلم والأصالة، وكان يعرف أكثر من غيره أن المطوع لا يحظى بأي تميز أخلاقي بل حامت حوله شبهات كثيرة تتعلق بالمال والنساء.. ولم يكن ينكر أنه برغم نقائصه يحظى بغير قليل من الحب والتأييد، ولم لا؟؟ إنه يؤم الناس في الصلاة، وخاصةً في يوم الجمعة، ويكتب لهم بعض الرُّقى لتقوى هممهم، وتُزيلَ عنهم بعضَ الأمراض، وتفتحَ لهم آفاقَ الأملِ المغلقة، وتقرب بين القلوب، وتجمع المحبين على أروع لقاء وصفاء..

تمتم حسن بن محمد:

- «لو كنت في أرض غير هذه الأرض لقبّلوا التراب الذي أسير عليه..».

قال علي زيد مبتسماً:

- «عندك من النساء ثلاثة، ومن الذرية ثمانية، كبراهن

يزيد عمرها على مريم عشر سنوات..».

ـ «في روحي ينبوع سحري لا ينضب..».

ـ «لكن التجعدات والشيب والكهولة فعلت بك الأفاعيل..» وأخذَ عليٌّ يضحك، بينما احتقن وجه المطوع وانصرف..

بقي علي يضرب كفاً بكفٍّ، هذه الملعونة تجر عليه المشاكل والمتاعب، لا يصح أن تترك هكذا... يجب أن يربطها برجل، ويضع حَدّاً لكل تلك الوساوس والأفكار، وليس من رجل سوى خميس، وبقاء مريم بدون زواج يعني مزيداً من الفتن والاضطراب.. وغداً تذبح الخراف، وتمد الموائد، ويُدعى الضيوف من القبائل المجاورة، وتدق الطبول لابنة سيد القبيلة.

وانزوت مريم داخل الخباء، تعزف وحيدة ألحاناً وردية على خفقات قلبها الغريب المتقلب... تذكر الطبيب، وتستعيد كل سكناته وحركاته وكلماته.. وتتحسس صدرها.. تتمنى أن يختنق.. أن تحبس فيه الأنفاس، حتى تَفِرَّ من هذا المكان، وتعود إلى الأسِرَّة البيضاء النظيفة.. والمبنى الأنيق الرحب.. والسينما التي تتدفق بالروعة والسحر، والأعاجيب، والألوان الجميلة، وتحلم بأن يكون عبد الله معها..

لا.. عبد الله غريب التصرفات.. ولقد أصبحت تشعر بالحيرة والقلق بسببه.. هل يحبها..؟؟ هل يخدعها؟؟.. وهي.. ماذا جرى لعواطفها؟.

❊ ❊ ❊



الفصل السابع

قالت مريم لأبيها:

ـ «أليس من حق الفتاة أن تبقى بدون زواج؟».

ـ «أيستطيع بشر يا ابنتي أن يمتنع عن الطعام والشراب؟».

ـ «يستطيع إن أراد..».

ـ «لكنه يموت».

تمتمت في ضيق: «يموت.. يموت.. فليمت ما دام يريد ذلك... ومع ذلك فإن الأمر مختلف يا أبت.. الزواج ليس ضرورة كالطعام والشراب..».

تمتم وهو يرمقها في تأففٍ:

ـ «إنَّه سنةُ الكون، وشريعةُ الله..».

ـ «لكنه اختيار..».

ـ «لا أظن.. وأنا أعرفُ ما يدور في ذهنك..».

قالت محتجة:

ـ «أنا أكره جميعَ الرجالِ ما عداك..».

قال وهو يسدِّدُ إليها نظراتٍ ذاتَ معنى:

ـ «وعبد الله..».

ـ «صعلوك كما قلت أنت..».

ضرب كفّاً بكفٍّ، وحَوْقَلَ، وبَسْمَلَ، واستبدت به الدهشة، وقطع هذه الثرثرة قائلاً:

ـ «الفتيات في مثل عمرك لا يعرفن ما يضرهن أو ينفعهن، ولهذا كنت على صواب حينما توليت بنفسي جميعَ أمرك.. ولسوف أبدأ فوراً في إتمام زواجك من خميس.. ولا تنسي أنني أعلنت ذلك اليوم أمام عدد كبير من رجال القبيلة، وسيقيم لك الشحوح أفراحاً ما جرت لأحدٍ من قبل..».

أرخت على وجهها البرقع، وتركت لدموعها العنان، بينما انصرف أبوها، وخطا خارجاً، يضرب بقدميه الحافيتين الأرض في تصميم وإصرار، واقتربت منها امرأةٌ عجوز، وقالت بصوتٍ راعش:

ـ «صدقيني.. إنَّ تصرفاتك تحيرني.. أنت لا تعرفين ماذا تريدين؟! اقعدي.. وكفى هزلاً وسخرية.. ماذا في الزواج من خميس؟!».

كلما تذكرت مريمُ خميساً وتصرفاتهِ وخبثه، ونظراتِه الشامتَةَ، استبدَّ بها الضيق واستشاط الغضب، لا تستطيع أن تتخيلَ الرجل الذي تكرهه يؤاكلها ويشاربها، ويشاركها الفراش، ويجاذبها أطرافَ الحديث.. في ذهنها صورة مُثلَى للحب والمحبين، يمتزج فيها اللعب بالعمل، والهزل بالجد، والمشاغبات المحببة، واللهفة الدائمة، والشوق العارم، وخميس ينبوع جاف لا يجود بشيء، لا يبدو على وجهه أثر لتلك الخيالات والرؤى الشائقة الجميلة.. إنه الصمت والجفاف والضيق.. شيء كالموت حرقاً، وكيف تقذف بنفسها في هذا الضياع الأبدي؟.

التقى بها خميس في المساء صدفةً.. ولعلَّه صنع بنفسه هذه الصدفة:

ـ «يا ابنةَ العم.. أنا منك وأنتِ مني..».

ـ «القرابة غير الحب يا خميس».

اعتصم بالصبر، وتمتم:

ـ «الدم الذي يجري في عروقك من دمي، وشرفك من شرفي..».

ـ «الشرفُ ليس كالماء والهواء.. مشاعاً بين الناس.. كل مخلوق له شرفه الخاص..».

قال وقد أحنقه الغضب:

- «برغم كل شيء.. فلسوف نتزوج..».

- «أتشعر بالرضا حينما ترتبط بامرأة ترفُضُك؟

- «أشعر بأقصى السعادة حينما يضحك منزلي..».

- «الحب في نظرك استيلاء، فهل هذا شرع الله؟».

- «فماذا يكون إذن يا ابنة العم؟».

- «هو اختيار ورضى..».

- «كلماتٌ ليس لها معنى.. وإلا فكل فتيات القبيلة يعانين التعاسةَ والشقاء..».

قالت في تحدٍّ:

- «إنهن كذلك..».

ضحك خميس في خُبث، وتمتم..:

- «لكنهن يعشن، ويغنين وينجبن الأطفال، ويعتنين بأنفسهم، ويتشبثن بالحياة، ويصلين ويصمن».

- «ومع ذلك فهن لسن سعيدات..».

اقترب منها، ولمس كتفها فارتعدت وابتعدت لكنه قال:

- «سنتزوج... وننجب أطفالاً.. ثم تنسين هذه الخزعبلات..»..

أطبقت العيون، واستولى النوم على البشر والحيوانات، وساد الصمت قمم الجبل ودروبه الكثيرة، وامتدَّ الظلام حتى كسا كل شيء.. وفي الصباح صاح علي زيد زيدون..:

- «مريم.. مريم..».

فلم يعد إليه سوى الصدى.

- «أين ذهبت؟؟»

قالت العجوز، وهي تخطو متثاقلة مرتجفة:

- «لا أدري.. لقد شعرت بها وهي تخرج كالعادة قبل منتصف الليل.. لعلَّها أغفت بعيداً تحت إحدى النخلات..».

وبحثوا عن مريم في كل اتجاه.. فلم يعثروا لها على أثر..

... كان الحارس يغط في النوم على باب المستشفى، وتباشير الفجر تلون الأفق الشرقي، والبحر نائم يغمغم بلحن هادىء ينضح بالأسرار والغموض، والسحر والمصابيح الذابلة تلقي بضوء واهن.. وتسللت مريم صوب بيتي، وأخذت تدق الجرس.. لم أنزعج، فقد تعوَّدتُ أن أسمعَ دِقاتِ الجرس في أيِّ وقت.. أنا طبيب.. والمرض لا وقت له.. قد يأتي المتألمون في أيةِ ساعة..

بابي مفتوح دائماً لكل الآلام.. لا أستطيع أن أتجاهلها أو أصدها.. ذلك أنا.. بل وكل طبيب جند نفسه للحرب ضد العدو الكبير الألم.. سواء استقرَّ في البدن، أو نشب أظفاره في القلب أو النفس.. وعندما فتحت الباب فوجئت بمريم.. آه.. «صباح الخير.. هل عاودكِ المرض..؟؟ تستطيعين أن تنتظري في المستشفى سوف آتي بعد دقائق» كانت شاحبةً لاهثةً في عينيها دموع.. وإن شعرت برضى خفيٍّ لمجرد رؤيتها. ودفعت مريم الباب ودلفت إلى الداخل.. إنها تبدأ معي رحلة المتاعب من جديد وغداً تنطلق الشائعات.. لا يهم فأنا مسافر اليوم إلى دبي، بعد أن تقرر نقلي بعيداً عن رأس الخيمة، مريم بالتأكيد لا تعرف ذلك، قالت مريم:

ـ «لست مريضة..».

ـ «لماذا أتيت إذن؟».

ـ «أتكره لقائي؟».

ـ «حاشا لله!!».

ـ «لقد هربتُ منهم..».

صحتُ في دهشة:

ـ «ماذا؟؟».

ـ «لن أعود إلى الجبل..».

ـ «هذا جنون..».

ـ «تركت ورائي كلَّ العذاب..»

ـ «لا أفهمك..».

ـ «وهل في الجبل يا طبيب غيرُ الفقرِ والحقدِ والعمى؟».

قلت وأنا أبتلع ريقي في ارتباك:

ـ «أنت واهمة، سوف يأتون وراءك.. إنها كارثةٌ كبرى».

ـ «لن يروني..».

ـ «وأنا مسافر».

ـ «إلى أين؟؟».

ـ «لقد تقرر نقلي إلى دبي..».

ـ «هذا أفضلُ.. سآتي معك».

دقَّ قلبي، همست.

ـ «هذا مستحيل..».

ـ «لماذا؟؟ ألا تريد خادمة تخدمك؟؟».

- «أنا أعزب.. وأهلُكِ لن يتركوك.. وإذا رآك أحدٌ معي الآن فالله وحده يعلم ما سيحدث.».

صمتت برهة، ثم قالت:

- «أعرف الطريقَ إلى دبي.. أعطني عشرة ريالات.. سوف أركب سيارة أجرة، وسأنتظرك في المكان الذي تحدده في دبي.. أسرع قبل أن يُسْفِرَ النهار.. الحارس نائم.. لم يرني أحدٌ.. أسرع».. كانت تتصرف بسرعة وحزم، وتفكر في كل شيء دون تردد. ووجدتني أُخرجُ لها مائةَ ريالٍ وأضعها في يدها.. وما أن أغمضت عيني ثم فتحتها، حتى وجدت مكانها خالياً.. لقد ذهبت.. وسمعت بعد لحظات اصطفاق الباب!

لو علم الشحوح بما يجري الآنَ لقطعوا رقبتي.. لماذا لم أتصدَّ لحماقتها، وأرفض مشروعَها الجنوني وأطردها شرَّ طردة لماذا لا أكون حازماً في مثل هذه الأمور، فأغالب هواي، وأنظر إلى مستقبلي والظروف المحيطة بي؟؟ دائماً أجدني مشدوداً إلى المجهول وخوض التجارب، حتى لو كانت تجارب مخيفة.. وتراءت لي عيناها الجميلتان المحتقنتان، وأطل على خيالي وجهُها الشاحب الغاضب، فارتجفت.. لكن آه.. الشحوح لا ينسون ثأرهم، ويقتفون الأثر في مهارة.. وحاسة الشم والحس عندهم قوية.. إنهم لا شكَّ يمشطون الأماكن الآن

لسلاح المشاة حين يحتلُّ موقعاً.. ويا ويلَها إن رآها أحد.. إن العنزة لا تضل طريقها في الصحراء الشاسعة. كل بدوي يعرفُ حيواناتِه وطباعَها واتجاهَها.. ولا تَضِلُّ عنزة، ولا يُفْقَدُ حمار أو ناقة.. لا بد أن يعثر البدوي على ضالته.. أنا أعرفهم.. آه حسناً.. ليكن ما يكون.. علي الآن أن أحزم حقائبي، وأجمع حاجاتي، ويجب ألا أنسى كتبي.. تلك الأفكار التي شكلت لي عالماً خاصاً غريباً مختلطاً.. الكتب جزء هام من وجودي، وبعد ساعات سيأتي الطبيب الجديد وسيحلُّ محلي، ويوقع لي على إخلاء الطرف.. وسوف أركب نفس السيارة التي أتت به وأنطلق إلى دبي. في الصباح كان المرضى يحيطون بي من كل جانب كلماتهم الساذجة الطيبة تثير انفعالاتي:

- «لماذا تركتنا يا طبيب؟؟».

- «ستترك المستشفى فورَ رحيلك».

- «أنت إنسان طيب..».

- «رافقتك السلامة..».

- «لا نريد طبيباً سواك».

وأنا أهزُّ رأسي شاكراً، أعرف أنها كلماتٌ لمجرد المجاملة وإن كانت تعبر بصدق عن حقيقةِ مشاعرهم.. عندما يأتي الطبيب الجديد. ويمارس عمَله كالمعتاد سوف

ينسون كلَّ شيء.. أو أصبح مجرد ذكرى، ما أكثر الذين يروحون ويجيئون.. أنني أذكر جيداً يوم أتيت إلى هنا.. استقبلني الناسُ بفتور، ظناً منهم أن ذلك واجب في أعناقهم للطبيب الذي رحل، وبعد أيام قليلة تغيَّر كلُّ شيء.. وجدت نقداً كثيراً يوجه إلى زميلي السابق والبعض هاجمه بشدة وطعن في سلوكه، كان أحد المضمدين يهمس في أذني قائلاً: «كان يسرق دواءَ المستشفى ويبيعه للصيدليات بالاشتراك مع بيتر.. بيتر هذا ملعون يا دكتور» وكانت إحدى الفراشات تميل على أذني قائلة: «كان الطبيب السابق يعني.. أقصد أن نظراته كانت زائغة.. ربنا يستر علينا وعليه».. أما أمين المستشفى فقد كان يتهم زميلي السابق بأنه كان يستولي على بعض الأطعمة والمخصصات المتعلقة بالمرضى والغريبُ أنني علمت عكسَ ذلك فيما بعد وتيقنت أن الذي اتهم بذلك هو أمين المستشفى، وأنه بسبب ذلك قد وجهت الإدارة إليه إنذاراً نهائياً بالفصل.. أمام كثرة الكلام والاتهامات، جمعت هيئة المستشفى وحذرتهم من كثرة الاتهامات ومنعت الحديث عن زميلي السابق منعاً باتاً.. ترى هل سيحدث لي اليوم ما حدث لزميلي بالأمس؟؟ ـ لكن أين فاتسالا؟؟ إنني لم أرها مع أني أقضي هنا ساعاتي الأخيرة.. لكن زميلتها قالت:

ـ «فاتسالا مريضة ولن تنزلَ إلى العملِ اليوم» أعتقد

أنه من الضروري أن أذهبَ للاطمئنان عليها كطبيب، وأن أودعها كمسافر وبرغم انفعالاتي المتعددة كنت متمالكاً لأعصابي وأحاول أن أبتسم. روضت نفسي على الابتسامة حتى ظلت مطبوعة في بلاهة على ثغري.. الحقيقة أن النقل في البداية كان مفاجأة لي لم أكن أتوقعُه. لا شكَّ أن أغلب الأطباء يميلون للعمل في مكان كدبي لأنه أكثر راحة بالنسبة لجوّها الاجتماعي، وتوفر جميع الأشياء التي يرغب فيها الإنسان وكثرة عدد الزملاء والأصدقاء والأقارب لكن نقلي المفاجىء أثار في نفسي شيئاً من الضيق لا أعتقد أن هناك سبباً سوى الشائعات التي انطلقت من حولي، كانت رئاستي واثقة من براءتي، برغم تقولات المغرضين وخاصة الملعون «بيتر» لكن الإدارة تريد أن تسدَّ ثغرات المشاكل وتقضي على الشائعات فتجري مثل هذا التغيير السريع.

أنا ذاهب إلى فاتسالا.. لكن صورة «مريم» تحلق فوق رأسي.. هذا الاختلاط في ذهني يربكني.. مريم «فاتسالا» الانتقال.. الماضي بما فيه.. أشياء كثيرة كلها تتآزر في جعلي أسيراً، وأنا في دوامة من الأفكار.. «فاتسالا ماذا بك؟».

قالت والدموع عالقة بأهدابها:

ـ «لا أستطيع أن أنهض من فراشي».

ـ «أنفلونزا؟».

ـ «لا.. رأسي يكاد ينفجر.. جسدي كلُّه يؤلمني..».

ما أكثر الأمراض النفسية في أيامنا هذه.. إنها الشيء الذي أقفُ أمامَه حائراً في أغلب الأحيان أغلبها أحلام مكبوتة تريد أن تتحقق وأنا لست ملك الكون، لأعطي من أشاء وأحب من أشاء.. أنا لا أملك حتى نفسي.. لا أستطيع أن أوجهها إلى النفور أو الرضى والحب أو الكراهية.. لا أملك سوى العزاء لنفسي وللآخرين.. وأحياناً أذرف الدموع، أو أبذل كلمات المجاملة دون تحفظ.. أنا عبد ضعيف مقهور.. وأخيراً قلت:

ـ «يعز عليَّ فراقك يا فاتسالا..».

ـ غمغمت وأهدابها تزداد ابتلالاً بالدموع:

ـ «الفراق..» ثم تنهدت قائلةً:

ـ «عالم تعس».

ـ «لن أنسى ما حييت الفترة الجميلة التي عملنا فيها معاً..».

ـ «سوف تنسى..».

ـ «ماذا تقولين يا فاتسالا؟..» ضحكت ضحكة يائسة، وقالت:

ـ «لقد نسيتني وأنا إلى جوارك..».

ـ «تتوهمين أشياء لا حقيقةَ لها..».

ـ «أعرف أنه العزاء ولا شيء غير ذلك..».

نظرت إلى بشرتها السمراء. وقرأتُ على وجهها نبضاتِ قلبها الأبيض إن صحَّ التعبير، إن في فاتسالا أمومة خالدة. أشعر بعطفها وولائها عميقين صادقين، إنها تذكرني على الرغم من أنها في ريعان الشباب، بجدتي الطيبة التي كانت تجلس إلى جواري أثناء النوم وتحاول باستمرار أن تحكم الغطاء حول جسدي في ليالي الشتاء الباردة، وتقص علي الحكايات الجميلة عن الأنبياء.. والحور العين.. و.. و.

ـ «يا فاتسالا العزيزة.. لا يمكن أن ينساك أحدٌ..».

ـ «كان حُلماً رائعاً..».

ـ «والأحلام يا فاتسالا هي الحياة..».

ـ «ليت الأمر كذلك..».

ـ «الحقيقة مُرَّةٌ يا فاتسالا..».

ـ «المرارةُ أنا أستشعرها..».

ـ «العمر لم ينتهِ بعد».

ـ «والعمر عندي ليس بالأيام. . العمر هو لحظات السعادة». ثُمَّ أخذتْ تشهق باكيةً جلست جامداً لا أستطيع الحركة، تلك هي النقطة الحرجة التي تصادفني كثيْراً في حياتي أن أقف تحت بعض الظروف فلا أتقدمُ إلى أمام ولا أتراجعُ إلى الوراء، أحاول جاهداً أن أقضيَ على هذا الضعف أو التردد أو الجمود فأفلح قليلاً لكنني كثيراً ما أظلُّ هكذا.

وهمست عاجزاً:

ـ «فاتسالا. . لِمَ تبكين؟».

ـ . . . . . .

ـ «فاتسالا أنا لم أسيء إليكِ. .».

نظرت إليَّ بعينين يطفر منهما الدمع، وهمست في غيظٍ مكتوم.

ـ «إما أنك تتغابى. . أو. . لا تحبني. .».

. «ما كرهتك في يوم من الأيام».

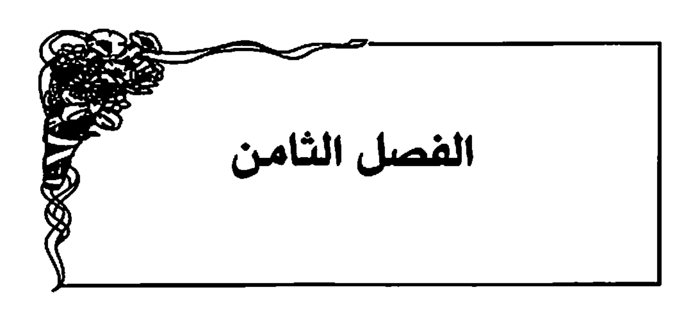
ودقَّ الباب، ودخل الناطور، قال:

ـ يا طبيب. . السيارة وصلت من دبي، وبها الطبيب الجديد. .

يا قلبي الحائر. . انطلق. . انطلق. . ولتجففي

دموعك يا فاتسالا.. إنه الرحيل.. وأنا المسافر دائماً..
من حال إلى حال.. وفاض قلبي بالحزن القديم.. حيث
تعزف آلامي وحرماني قيثارة أبدية، وأنا الجوّاب بين السماء
والأرض، المنطلق عبر غابات المجهول، أبحث دائماً عن
الدروب المزهرة، والينابيع الطاهرة، وأشعر دائماً أن يد
الشر الضافي قد لوثت الكثير من مباهج الحياة، وجعلت
من روائع القيم ألعوبةً تتلهى بها.. والناس يعيشون عصر
الحيرة الكبرى.. ترى متى أشعر بالأمان والاستقرار؟؟.

❋ ❋ ❋



الفصل الثامن

اندلعت في جبل الشحوح فتنة ضارية، واستلَّ الرجالُ الخناجرَ وبعضهم شهر غدارته وانطلقت الشائعات. فمن قائل بأن مريم قدْ أخفاها عبد الله بتدبير محكم، زاعم أن خميس ابن عمها قد قضى عليها. وادَّعى البعضُ الآخر أن المطوع حسن بن محمد قد سحر لها فاختطفتها العفاريت ـ ولم يسفر البحث عن شيء ذي قيمة. ووقف أبوها شامخاً، وإن كان في قرارةِ نفسه يشعر بالتضاؤل والخجل وصرح: أن ابنتي يجب أن تظهر هناك أيدٍ خبيثة لعبت في الخفاء وليس الأمر أمر فتاة اختفت ولكنه شرف القبيلة، وكرامة الجبل كله، كرامة شيخكم من كرامتكم، وإذا لم تظهر «مريم» فسأشرع سلاحي ولن أرحمَ، وأنا لا أتهم فرداً بعينه فالأمر شائك وأنا لا أريد أن أُلقيَ التهم جُزافاً.

لكن نداءه ذهب أدراج الرياح، فأخذ الرجل يقطع الساحة ذهاباً وإياباً والحيرة والقلق يلعبان بلُبِّه ثم أوى إلى ركن في مسكنه، وانكفأ صامتاً لا يدري ماذا يفعل، وسمع

صراخاً وضجةً فهرول إلى الخارج، لقد وثب خميس على عبد الله وأخذ بتلابيبه صائحاً:

ـ «إذا لم تفصح عن مكانها فسأسفك دمَك».

ـ «تلك محاولة خسيسة لإخفاءِ جريمتك. . أنت قتلتها».

وأخذا يتبادلان التهم، كما يتبادلان الكلمات والصفعات، ثم استلَّ كلٌ منهما خنجره ووقفا يفصل بينهما حيز ضيق، ينظر كلٌ منهما للآخر بعينين يتقدان شراراً، ويهز يده بخنجره مهدداً، ومن حولهما عدد من رجال القبيلة، يقفون متوترين، لا يدرون كيف يسدون ثغرةَ الفتنة واحتمالاتها المرعبة. . لكن علي زيد زيدون قدم مكفهرَّ الوجه، ثم اقترب من خميس ونزع عنه خنجره فلم يبد أدنى اعتراض، وتوجه صوبَ عبدِ الله الذي مدَّ يده بخنجره مستسلماً دون أن يتفوه بكلمة، وهتف علي زيد في حزم:

ـ «اذهبوا إلى أعمالكم. . أنا القاضي هنا. . بل أنا الخصم والحكم. . وابنتي لا بد أن تظهر مهما كان الأمر. . كلكم خصوم. . وفي نفس الوقت كلكم معتدى عليه ولن يهدأ لي بال حتى أعرف الحقيقة. . انصرفوا. .» انفضوا بهدوء يشي بكثير من الانفعالات والأفكار، بينما خرجت المرأة العجوز من مسكن شيخ القبيلة، وقالت بصوت راعش:

ـ «ابحثوا عن حسن بن محمد.. هؤلاء «المطاوعة» يستخدمون الجان..».

ووجدت كلماتها استحساناً لدى أغلب الرجال المنصرفين، فتوقفوا مرةً ثانية، وتنقلوا بنظراتهم بينها وبين شيخ القبيلة، واستطردت العجوز قائلة:

ـ «هذا الساحر، إن لم يكن قد فعل فعلته، فلا شكَّ أنه يعرف طريقها..» ويبدو أن علي زيد قد استساغ كلمات العجوز ووجد فيها شيئاً من التعقل، أجل إن لم يكن حسن بن محمد قد اختطفها فهو على الأقلّ قد يعرف أين ذهبت بوسائله الخاصة، إنه ورث عن آبائه بعضَ المخطوطات القديمة ذات الأهمية البالغة، بعضها مكتوب بدم الغزال، وبها أساليب تكشف المخبوء، وإماطة اللثام عن عالم الغيب واستخدام الجان في ربط قلوب المحبين أو التفرقة بينها، وبها قسم خاص للتداوي بالبذور النباتية، أو الرُّقى والتعاويذ، وبها أشياء عن الطالع والنجوم، والفلك والكوارث المحتملة، والبشريات المتوقعة.. حسن بن محمد موسوعة علمية كبرى، يعترف لها أهل الجبل بالتفوق والتميز..

والرجل ذكي برغم خبثه، ويمتلك ثروة لا بأس بها، وله نفوذ غريب على الجميع، وشيخ القبيلة يلجأ إليه في بعض الظروف الحرجة، عندما يكربه أمر، أو تعضله

مشكلة.. ولم يكن علي زيد زيدون من السذاجة بحيث يستعمل سلاح التهديد مع «مطوع» هذا شأنه، فلم يكن هناك مناص من أن يلجأ إلى الحيلة والدهاء..

- «حسن يابن محمد.. أنا منك وأنت مني.

.. نحن إخوة..».

قال المطوع:

- «بالتأكيد..».

- «عارٌ كبيرٌ أن تختفيَ ابنتي..».

غمغم المطوع:

- «كله مكتوبٌ في اللوح المحفوظ».

- «أواثق أنت من ذلك».

- «كما أثق بوجودك إلى جواري».

- «وماذا في اللوح أيضاً».

- لا أستطيع أن أتبين السطور.. في اللوح المحفوظ أسرارٌ وأسرارٌ.. وأخبارٌ وأخبارٌ، يصعب فك طلاسِمها في كثير من الأحيان.. وأخذ يضيق عينيه، وينظر إلى الأفق البعيد ويتمتم:

- «مريم بنت علي زيد زيدون.. أين أنت يا بدرَ

البدور.. يا تاجَ الجمال والرفعة.. يا بنتَ الأكابر.. إني أرى شبحها يتسامى كالطيفِ.. ملفعة بشال من السحب البيضاء.

تغسل وجهها ويديها بماء الكوثر..».

صرخ علي زيد زيدون في رعب:

- «هل ماتت؟؟».

- «كلُّ شيء بقضاء..».

- «أريد أن أعرف..».

- «من أنت يا علي حتى تعرف؟؟.. أنت حشرة..».

استبدَّ بعلي الضيق، وقال محتداً:

- «ما هذا الكلام؟!».

- «ليس من عندي.. إنه موحى به من بعيد.. لست أنا الذي يتكلم..».

سعل في أسى:

- «أهي على قيد الحياة؟».

صرخ حسن كالمجذوب:

- «حيّ لا يموت.. فتقربوا إليه بالصلاة والقنوت..».

ـ «لم تزدني إلا حيرة. .».

ـ «لسنا مصدر الحيرة، ولكنه قصور عقولكم وانحطاط أرواحكم. .».

تململ عليّ في همٍّ، وقال:

ـ «آمنت بالله. .».

قال المطوع:

ـ «يا أبناء الجيل الضالّ. . اللعنةُ تنتظركم».

ـ «نحن قلّما نعصي الله».

ـ «الإثم كالشرك أخفى من دبيب النمل».

ـ «ونحن نطيع الخالق في حدود معرفتنا».

ـ «تتسترون وراء الجهل. . وتحقرون العلماء وتعاملون. . المطاوعة. . بسخرية واستهتار. . يا عبدة الدرهم والدينار. . ولا تخافون الواحد القهار. . النار. . النار. . يا شيعةَ الآثام والأوزار».

أمسك عليّ بكمه في ضراعة:

ـ «أين ابنتي؟؟».

ـ «هناك. . على شفا جُرُفٍ هار. .».

ـ «ما هو؟؟ وأين الجرف الهار؟».

ـ «في ملك الواحد القهار».

وابتلع ريقَه، ثم استطرد:

ـ «أغلقت باب الجنة في وجهها، ولم يفكر واحد فيكم في إرشادها.. كنت أريدُ لها النعيمَ والخير.. كنت سأطعمها في صحائف من الفضة، وأسقيها في كؤوس من الذهب، وأفجر أنهارَ السعادة تحت قدميها.. لكنكم حرمتموها المجدَ والفخارَ.. أيُّهَا الفجار..».

ومدَّ علي زيد زيدون يدَه، وقد فهم مقصده:

ـ «يدي في يدك.. أعاهدك على أن تكونَ لك عند ظهورها..».

نظر إليه المطوع بعينين تشرقان بالسعادة،

وتمتم:

ـ «تلك هي التوبةُ التي تغسل ذنوب الجبل..».

وصافح شيخ القبيلة شارداً، وهمس:

ـ «هي حيَّة ترزق.. تتهاوى بين ماءين.. ماء هنا وماء هناك».

ـ «لكن ما هو السحاب؟؟ وما هو الماء الذي تغسل فيه وجهها و..».

وقف المطوع وصاح مقاطعاً:

- «قف عند حدِّك يا علي.. ولا تخضْ فيما ليس لك به علم. غير أني أؤكد لك، أن عروس الجبل ستظهر.. وسيكون لظهورها رنة فرح كبرى.. وستقام الأعراس في أنحاء الجبل.. وعلى الشاطىء الجميل.. إليك عني.. اذهب والزمْ بيتك.. وانتظر أيُّها الملهوف.. حتى تدنوَ القطوف.. وغداً تلتئم الجروح.. يا سيدَ جبلِ الشحوح..».

وفي اليوم التالي اختفى المطوع حسن بن محمد، ولم يعثر له هو الآخر على أثر.. خرج الرجال صوبَ البحر في رحلة صيد، كانوا ينحدرون من الجبل في صمت عاصف، وكان بين الرجالِ خميس وعبد الله، كلٌّ واحد منهما يفكر لا شك في الآخر، لكن خميس يكاد يجن، فهو يعلم أن عبدَ الله قد قضى يومين في هذا الأسبوع بعيداً عن موطن القبيلة، وخميس يريد أن يعرف كلَّ شيء، الشك يأكل قلبَه وهو لا يُبَرِّىءُ عبد الله ممَّا حدث، بالتأكيد - حسبَ ظنه - أنه ضالع في تدبير المؤامرة المحكمة.

واقترب خميس من عبد الله..

- «أين كنت؟؟».

- «هذا شأني».

قالها عبد الله في عنف وتحدٍّ..

ـ «قلت أين كنت؟».

ابتسم عبد الله في استخفافٍ، وقال:

ـ «كنت أبحث عنها».

ـ «وما شأنك؟».

ـ «إنها بنتُ القبيلة كلها..».

ربما ارتاح خميس لهذا التفسير، لكم يضايقه أن يكون عبد الله جادّاً، في البحث عنها من أجل العاطفة القديمة التي تربط بينهما، أما أن يبحث عنها حفظاً لكرامة القبيلة، فهو نوع من التآزر والتعاطف العام الذي يربط بين أفراد الجبل وسكانه..

ـ «أتريد أن تقول أنك لا تعرف مكانها؟».

ـ «ولماذا أبحثُ عنها إذن؟؟».

ـ «قد تكون في زيارة محرمة..».

التفت إليه عبد الله، وقال:

ـ «خميس.. لم لا تكون أكبر من الحزازاتِ الشخصية».

ـ «أنا أعرفك..».

ـ أنا رجل . .

قهقه خميس، وهتف:

ـ «قد نختلفُ في ذلك»:

وضع عبد الله يدَه على خنجره، وارتجفت أوصالهُ، وشحب وجهه، نظر إلى خميس في غيظ:

ـ «أستطيع أن أسحقك».

ـ «أنت؟؟».

وتدخل الرجال، قال العقلاء منهم، نحن بصدد النزول إلى البحر، ونريد أن نبحث عن لقمة العيش، وفي الإمكان تأجيل ذلك الصراع على الأقل، بل الأوفق أن يدفن هذا الصراع إلى الأبد ـ اختفت مريم ـ لم ينلها أحد، ويجب ألا تسيطر على الجميع سوى فكرة البحث عنها، والتغلب على الهواجسِ والشكوكِ. . كان الجميع يعيشون في شبه سلام. . الحقيقة أن «مريم» سامحها الله أثارت من الزوابع ما يكفي لاضطراب الأمن في مدينة كرأسِ الخيمة. فما بالك بقبيلة على جبل الشحوح؟.

قال رجل من الرجال:

ـ «النساء ناقصاتُ عقل ودين».

وقال ثان:

ـ «إنهن شياطين صغيرة.. أتباع الشيطان في الأرض، وسببُ كلِّ بلية».

وقال ثالث:

ـ «يقول المطوع حسن بن محمد عنهن: إن الله خلقهن من ضلع أعوج..».

ـ «الاعوجاج طبع فيهن».

وضحك الرجل الذي يمسك عادة بسكان السفينة، وقال:

ـ «ولماذا تزوج «مطوعنا» الزاهد من ثلاث نساء؟؟ والغريب أنه كان يريد الرابعة..».

هم يعرفون أن حسن بن محمد كثيراً ما يهاجم النساء، في صلاة الجمعة وأثناء الخطبة يرميهن بالعقوق والفسوق، وفي وعظياته على سفح الجبل، أو أثناء «الديوانيات» التي يجتمع فيها شمل الأحباب يتناولهن بالسب واللعن، ومهنته التي يمارسها تتناول كتابة الرقي والتعاويذ السحرية، لكي يجمع قلبين متنافرين، أو يفرق بين متحابين، وكثيرات من المصابات بالصداع المزمن أو العقم أو الأمراض المستعصية يلجأن إليه كي يخففَ من آلامهن، إنه ميدان عمله الأكبر بين النساء ومع ذلك يسدد إليهن سهام غضبه وثورته. قال أحد الرجال:

ـ «إبليس هو الذي أخرج آدم وحواء من الجنة..».

كان عبد الله يدرك معنى تلك العبارة، إنها اتهام صريح لحسن بن محمد بأنه قد يكون وراء اختفاء «مريم» وربما يواصل جهوده السحرية ليدفع بغريمه في حبها إلى الهروب هو الآخر، فالمطوع ذو قوة خارقة في طرد المحبين من الجنة حتى ينعم فيها هو، وينال حظه من المتعة والسعادة.

قال خميس: عندما تتجلى الحقيقة، فسيعرف الجبل عن بكرة أبيه كيف يكون العقاب الرادع. انطلقت المركب عبر البحر الكبير لساعات، والرجال يرمون بالشباك، ويجمعون الأسماك ويتناولون أقداح القهوة، ويصارعون الموج في بسالة، وبينما كانوا يفرغون الشباك ذاتَ مرة، صاح أحد الصيادين:

ـ احذر يا عبد الله.. انظر سمكة «قرش».

لو أمسكت بأصبعك لأكلته..

أمسك عبد الله بسمكة القرش من ذيلِها ثم رفعها، وضرب رأسَها بخشب السفينة عدة مرات حتى خمدت حركتها، ثم قذف بها إلى أحد الرفاق، وقال:

ـ «أعدها ثم انضجها على النار.. إني جائع.. سمك القرش ليس لذيذَ الطعم تماماً، ولكني أريد أن آكل منه..».

سدَّد إليه خميس نظرات حانقة، ويبدو أن خميس توهم تحدياً خفياً وراء كلمات غريمه حين الحديث عن سمك القرش، قال عبدُ الله:

ـ «لِمَ تنظرُ إليَّ هكذا؟؟».

قال خميس في جفوة ظالمة:

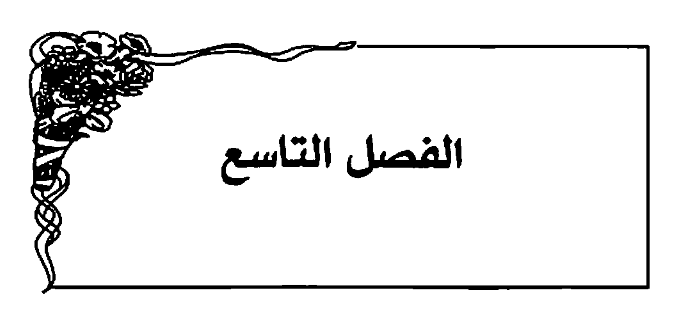
ـ «كلماتُك تثير سخريتي..».

احتقن وجه عبد الله، لم يعد يطيق صبراً، قال بصوت كالفحيح:

ـ «أيها القرد.. إنك تثير اشمئزازي».

اندفع الرجلان كل منهما صوبَ الآخر في سرعة البرق، والتحما في عراك خاطف متوحش، تبادلا فيه اللكماتِ والصفعاتِ والركلاتِ، وقد تعرض خميس لعدد أكبر من الضربات، ثم انهار على أرض السفينة، فبرك عليه عبد الله، فحاول أن يعتصر عنقه بقبضة حديدية متشنجة.. والرجال يحاولون تخليصها. وفجأة صرخ عبد الله، لقد استطاع خميس أن يلتقط أذن عبد الله بين فكيه، ولم يتركه إلا والدماء تنزف منه، ثم قام من تحته، وهو يمضغ قطعة من اللحم البشري ويلوكها بأسنانه..

* * *



الفصل التاسع

قال قائد السفينة:

ـ «سنكتفي الليلة بما جمعناه من صيد..

وَلْتُحكِمُوا وثاق عبد الله وخميس بالحبال، وليوضع كل واحد منهما في طرف من أطراف السفينة، حتى نعود إلى الشاطىء، ولن يخرجوا معنا للصيد مرةً ثانية..».

كانت السفينة تتأرجح أثناءَ العراك بصورة مزعجة، وأكوام السمك تضطرب وتتواثب، وكأنها تصارع هي الأخرى، والليل حالك السواد، والبحر يمتدُّ إلى بعيد في غموض ممزوج بالخوف، وتمتم الربان في ضيق:

ـ «لو انقلبت سفينتنا الصغيرة لضعنا في هذا التيه إلى الأبد ولأَكَلَنَا سمك القرش.. أنتم مجانين..».

لم يعلق أحدٌ بكلمة، بل بقي الجميع صامتين، فاستطرد الربان:

ـ «أمن أجل امرأة تفعلون هذه الأفاعيل؟؟ غداً

تتزوجون وتنهلون من كأس القلق والضيق.. ثم تصبح المرأةُ مجردَ عبء ثقيل.. إن ما تفعلونه ليس هو الحب.. أنتم تكذبون.. إن ما أراه صورة صفيقة للأنانية والحقد والطمع.. أنتم إخوة.. هكذا علمتنا حياة الجبل وحياة البحر وتقاليد القبيلة.. والدين قبل كل شيء.. أنتم تخونون الجبل والبحر والقبيلة، وتنسَوْنَ آداب دينكم.. ماذا جرى للناس؟ الشقاء فينا سببُه البعد عن الله..» لفَّ الصمت رحلة العودة الحزينة.. عبدُ الله أذنه تؤلمه وتنزف دماً، وخميس لا ينسى هزيمته وقد اعتلاه غريمه، استيقظت الفتنة، ولن ينام الثأر، وقد سالت قطرات دم، ومن بعدها تتدفق الدماء غزيرة من أجل امرأةٍ مدللة، وتمتم الربانُ بعد فترة صمت طويلة:

ـ «المرأةُ في نظري لا تساوي درهماً..».

ولما لم يعلقْ أحدٌ بكلمة، استطرد وهو يتثاءب:

ـ «كلهن قَذِرات.. لو فكرن فيما يفعلن ويجلبن من كوارث، لوفرن للحي السلام والصفاء.. والمال والنساء شيطانان يعصفان بأمن الوجود.. لو رفعت امرأتي رأسَها بكلمة اعتراض لحطمتُ جمجمتَها، عندما يكون للنساء رأي يفسد كلُّ شيء، ويتحول الرجال إلى أدوات خبيثة في أيدي الشيطان..».

وقرب الشاطىء فك الربان وثاقهما، ووضع حارساً يقف إلى جوار كل واحد منهما، وكان لدى الشاطىء نساء وأطفال ورجال ينتظرون الرزق، وتعاون الجميع في نقل السمك إلى الشاطىء، أما الربان فقد قصد لتوه شيخ القبيلة «علي زيد زيدون» فالأمر لا يمكن السكوتُ عليه، ولا بُدَّ من البحث عن حلٍ، وإلا انفرط عقد القبيلة، وطمع فيها أعداؤها، وصار تفككها مضربَ الأمثالِ، وحديثَ الركبان.. ومن يَدري قد يأتي أحدٌ لإخضاعنا تحت سيطرته.

«ونحن الذين عشنا أحراراً فوق أرضنا لسنين طويلة..».

***

المطوع حسن بن محمد رجل ذكي جسور، لا يعرف اليأس، ولا يستسلم للهزيمة، أخذ يفكر ليلة كاملة في أمر «مريم» مَنْ هُمْ معارفُها وأقاربُها!؟ أيُّ الأماكن تعرف، وما هي المناطق التي تعودت على زيارتِها؟؟

وضع كل شيء أمامه، ودرسه بإمعان. ثم قرر البدء في البحث إنه المرجع الأول والأخير للقبيلة، عليه يعلقون الآمال، وإليه يلجأون في المُعضِلاتِ، ولكم يكون سعيداً عندما يحقق نجاحاً عجزَ عنه الآخرون، إنه يريد لنفسه الفخر والتفوق دائماً، لكنه هذه المرة يندفع لشعور آخر غريب، لا يهمه أن يقف الناس مبهورين أمام ذكائه أو

حسن تصرفه، ولا يكترث كثيراً بتحقيق رغبات شيخ القبيلة، أو إزالة سحب القلق التي تظلل الجبل منذ اختفاء مريم، المهم عنده أن يحصل عليها. . لنفسه هو. . وسيان لديه إن انبهرَ الناسُ أو لم ينبهروا، رضوا أم سخطوا هذه الشيطانة الصغيرة استطاعت أن تستوليَ على لُبِّهِ، وتملأ فراغ روحه، تمكنت من سويداء قلبه، وسيطرت عليه بالحب. . تمردها يشجيه، شبابُها يشتِت فكره، عيناها تجعل رأسَه يدور، هو يريدها بأيِّ ثمن، فليتفرغ لها، وليهب وقتَه، وراحته للبحثِ عنها، وهو على استعداد أن يُبَدِّدَ كلَّ مدخراته الغالية كي يجدَها ويفوزَ بها، كان يجلس شارداً، ثم يستخرج ورقة وقلماً ويكتب بعضَ أبيات الشعر الغزلي الرقيق، يمزج فيها الفصحى بالعامية، وقد ينصب الفاعل ويرفع المفعول، أو يتجاهل أدوات الجزم والنصب بالنسبة لآخر الفعل، وكان يردد هذا الشعر في سعادة بالغة، موقناً أنه أروع شعر سطرته براعة شاعر في عرض الصحراء وطولها. انطلق حسن إلى الأحياء المجاورة باحثاً عنها ومنقباً، كان يقضي يوماً أو يومين، يتنسم الأخبار، ويسأل أصدقاءه من المطاوعة الآخرين، وشيوخ القبائل، دون جدوى، ثم انحدر إلى رأس الخيمة يتجول بين بيوتها المبنية من سَعْف النخيل «العشش» وفي حواريها الضيقة، ويقبع لدى حوانيت الخضروات والحبوب والبقالة واللحوم، ويحوم حَول بيوت الحكام مستفسراً من المطرزية

(الحرس الخاص) والخدم، لعلّها تكون قد لجأت إلى قصر من القصور تخدِمُ فيه وتختفي عن العيون، وقد رجَّح أنها ربما تكون قد أخفت شخصيتها في مثل هذه الأماكن، ولذا كان يتحرز من الخطأ، ويحاول أن يُعطِيَ أوصافها وملابسها التي يعرفها جيداً، ثم يراقب المستشفى ويدقق النظر في الداخلين والخارجين، وقد بقي هناك في رأس الخيمة أكثر من عشرة أيام.

وأخيراً علم من أحد سائقي سيارات الأجرة، أن فتاة ركبت معه إلى دبي في يوم كذا.. الساعة كذا.. وصفاتها كذا.. وأنها قد أعطته مائة ريال، وتسلمت الباقي، وعندما سأله المطوع عن مكان نزولها، قال:

«نزلت وسط دبي، وكانت تائهةً حائرةً، وتسأل..»

وبرغم صعوبة الموقف إلا أن المطوع لم ييأس، لقد استطاع بعد جهدٍ جهيد أن يمسك بطرف خيط، وتبدى له بصيص من نور وهو صبور لا يزعجه الانتظار، ولا يرهقه البحث، ولا يؤيسه التعب الطويل، إن في قلبه طاقةً هائلةً تدفعه دفعاً لأن يجري وينفق ويسهر الليالي ويدخل إلى الطرقات المتفرعة، ويصعد الجبال، ويخوض في الرمال حتى يجدَها، لأنه يريدها بعنف لا يستطيع له رداً.. لم يعد يسير في نطاق إرادته وعزيمته، لقد أسلس قياده للمجهول فهو ينطلق دون أن يستطيع أن يضع حداً لانطلاقه

وكأنه يسابق الأحداث، ويغالب الزمن، إن دقيقة واحدة لا يفكر خلالها في مريم، أو يبحث عنها، لهي عمر ضائع يدعو إلى الأسف والتحسر.. وحينما بلغ «دبي» كان قد مضى عليه حوالي الثلاثة أسابيع.. ووقف في وسطِ الساحة القريبة من «السينما الوطني» وقد مالت الشمس نحو الغروب، كان مرهقاً، ومع ذلك كانت اللهفة والشوق يعمران قلبه، وانتابته نشوةٌ صوفيةٌ مباغتة، فرفع إلى السماء عينين ضارعتين وتمتم:

ـ «المُلكُ لك وحدَك يا صاحبَ المُلكِ الكبير..

أنا عبدك المستجير.. بقدرتك أستغيث.. لقد ازدحم الماضي بخطايا كثيرة.. لكني لم أفقدْ ثقتي بك، وما تزعزع إيماني قط.. وأنا الفقير إليك.. أضرع إليك أن تدلني عليها.. إنني أخجل إذ أطلب هذا الطلب.. لكني لا أستطيع أن أقهر أشواقي، ولا أخفي ما في نفسي.. فأنت وحدك تعلم ما تكنُّه الصدور. كلما ازدادت مريم بعداً عني ازددت شوقاً إليها.. أنا أريدها في الحلال وفي حمى شريعة نبيك.. وأنا عبدك وابن عبدك.. أرهقني التجوال، وأعياني البحث.. وأنا أتلفت في هذا العالم الواسع باحثاً عن وجهها الصغير في ملكوتك الضخم.. فمن أكون وأنا العبد العاجز المقهور، المحدود الإرادة والقدرة!!» وانسكبت دمعة على خدّه الناتىء، وانحدرت إلى لحيته الطويلة، كان عريض

الجبهة، واسع العينين، مستطيل الوجه، في مقدمة رأسه صَلَعٌ خفيفٌ يختفي تحت «غطرته» غطاء رأسه الأبيض، وكان معه كيس من قماش سميك به قليلٌ من الطعام وكتاب تنجيم قديم، وقلم وأوراق وعدد لا بأس به من الريالات تكفي مثله لأكثر من خمسة شهور.. وخطا إلى الشارع الكبير المكتظ بالمشاة والسيارات، والذي تغمره الأضواء من كل جانب، وفي لحظات اندمج في جو الشارع، ولم يتذكر أن ينظر ثانية إلى السماء المرصعة بالنجوم..

* * *

أخذتها روعة المدينة، ومضت في شوارعها على غير هدى، تنظر إلى معروضات المحلات التجارية بعيون متسعة، لقد شدَّ انتباهها الأزياء الجميلة.. أخذت تنظر إلى قمصان النوم الحريرية الرقيقة خلف الزجاج، وتشهق في استغراب، ثم تقف أمام التماثيل شبه العارية للنساء ومختلف الملابس الداخلية وتبتسم وقلبها يدق، ثم وقعت عيناها على فتيات ونساء يسرن في الشارع حاسرات الوجوه، وثيابهن أعلى الركبة وبلا أكمام، وبعضهن قد تركن ظهورهن عاريات والشعور منسقة بطريقة أو بأخرى وتلمع تحتَ ضوء الشمس، لكن بعض النسوة يرتدين البراقع والعباءات السوداء، والسيارات تتزاحم، وداخل السيارات ألوان شتى من البشر، يجلسون في هدوء وكأنهم

لا يخافون أحداً، أشياء كانت تراها في المرات القليلة التي دخلت فيها السينما، وبعضها كانت تراه في المجلات المصوَّرة، لكن النسوة يمضين بعيون مفتوحة جريئة، أية جسارة وشجاعة..

كان عليها أن تنتظر الطبيب لدى باب المستشفى حسب الاتفاق، فهرولت تسأل هنا وهناك، أشار عليها بعض المارَّة أن تركب «سيارة أجرة» لكنها فضلت أن تقطع المسافة على قدميها، واستعانت ببعض الوصف والتوجيه من الناس، وبذلك أمكنها أن تصل إلى المكان المطلوب وأخذت تتملى الداخلين والخارجين، كانت ترى الأطباء والموظفين يروحون ويجيئون، والممرضات يتهادين في خفة ورشاقة كالحمامات البيضاء، والابتسامة الحلوة تعلو وجوههن، ليتها كانت واحدة منهن، إذن لاستطاعت أن تعيش إلى جوار حبيبها إلى الأبد. ثم هناك نماذج من آلام البشر تمرُّ أمامها، فتجعلها تشعر بالحزن العميق. هذا جريح. وتلك امرأة حبلى تتوجع ورجل يحملونه على «نقالة» صغيرة في إغماءة تشبه الموت، وطفل كُسِرَت ساقهُ.. وآخر يضع ضمادة بيضاء على عينيه.. وسكران بين أيدي رجال الشرطة يسب ويلعن، ويثور ويسكن، ويضحك ويبتئس.. عالمٌ غريبٌ يموج بالحركة والطرافة الممزوجة بالدموع.. وتمتمت بينها وبين نفسها: «أين

هو؟! لقد طالت غيبتُه».

لكني لم آتِ إلا قبيل الظهر، كنت أركب إلى جوار السائق في سيارة «لاندروفر» ولمحتها لدى الباب، الحقيقة لم أكن أدري ماذا أفعل، فكرت طويلاً أثناءَ الطريق دون أن أهتدي إلى شيء بشأنها، وعندما رأتني جرت خلف السيارة التي دلفت إلى باحة المستشفى، شعرتُ بالخجل والارتباك، ونزلت بعد أن توقفت السيارة، ودرت خلفها، والتقيت بها:

ـ «انتظري كما أنت يا مريم، لا تتحركي من أمام المستشفى، إن أمامي بعض الأعمال التي لا بُدَّ أن أنتهيَ منها أولاً . . ».

قالت في شيء من الضيق الممزوج بالفرحة:

ـ «لقد مللت الانتظار».

ـ «أنا موظف، ومرتبط بمواعيد وإجراءات».

ـ «لم لا تأتي أولاً وتضعني في مكانٍ أمين، ثم تفعل بعدَ ذلك ما تشاء؟».

ـ «لا أعرفُ لي مكاناً بعدُ . . ».

نظرت إليَّ من خلف الخمار الأسود بعينين متألقتين تشيان بالحيوية والسعادة والعجلة، دارت رأسي. لكني سرعان ما أفقت.

- «لا تنزعجي، سأعود بعدَ قليل».

انتهت الطقوس الوظيفية من استلام وتسلم، كانت كلمات الترحيب من الزملاء تنصب في أذني دون أن أكترث لها، أخبرني أمين المستشفى بأنني سأسكن مع بعض رفاقي، لأني أعزبُ ولا يصحُ أن أشغل مسكناً وحدي، وقعتُ في حيرة، ماذا أفعل؟؟ إن مريم تربكني وتمزقني، أأرسلها إلى أهلها؟؟ الحلُّ الطبيعي هو ذلك، لا مجالَ للعواطفِ والعبثِ، ولا بُدَّ أني سأقع بسببها في مشاكلَ لا حصرَ لها، ووجدتني أقول لأمين المستشفى:

- «إنني أفضل أن أبحث عن سكن خاص وأتقاضى منكم بدل السكن.. هذا أفضل بالنسبة لي..».

- «لا مانع، فلنكتب ورقة بذلك..» وعدت إليها، كانت قَلِقَةً تجلس وتقوم، وتتلفت يمنةً ويسرةً».

- «يجب أن تبقي كما أنت.. أنا أبحثُ عن مسكن..».

قالت في ضيق:

- «أي مكان.. إنني أستطيع أن أبني لك عشيشاً على شاطىء الخليج» ضحكت، وأومأت إليها، وانصرفت، لا بُدَّ من العثور على أيِّ مسكن، في أيِّ مكان وبأيِّ ثمن، فالفنادق لا تصلح ومعي من المال ما يحل المشكلة،

وقصدت أحد أصدقائي القُدامى من البقالين، فأرشدني إلى شقة صغيرة فوق سطح أحد المنازل العالية، وأنهيت الإجراءات بسرعة فائقة، ثم أسرعت إليها في سيارة أجرة، وأشرت إليها من بعيد، كان السائق الهندي ينظر إلينا بخبث، أنا لا أكترث، كانت الشقة خاوية ليس فيها أيُّ قطعة من الأثاث، وصممت ألا يعرف أحد من الزملاءِ أو الأصدقاءِ مكاني، حينما دخلت نظرت هنا وهناك والسعادة تعلو وجهها الذي كشفت عنه الخمار، كانت سمرتها الفاتنة المشوبة بالحمرة ولون عينيها الآسرتين تنبي عن بأس وثقة وسيطرة، وقصدت لتوها حوض الماء، وغسلت يديها ووجهها، قلت لها:

ـ «سأخرج الآن.. أغلقي البابَ من الداخلِ ولا تفتحيه لأيِّ طارق مهما كان.. لك مفتاح.. ولي مفتاح ولسوف أخرج لأحضرَ بعضَ الضروريات..».

كنت أتحرك في قلق وتوتر، يداي ترْتعشان، وقلبي يدق، والعرق يتهاطل على جبهتي، وعيوني حائرة لا تكاد تستقر على شيء. ما هٰذا الذي أفعل؟؟ إنني أمضي في طريق شائك لا أعرف له نهاية، ألعب بالنار، إنني أتذكر الماضي حينما كنت أثور للفساد السياسي الذي ترزح بلدي تحت وطأته، كنت أنطلق هاتفاً ومن خلفي الطلاب، أحياناً كانوا يسوقونني إلى السجن، وأحياناً أخرى كان ينهمر

الرصَاص، لكني كنت أكرر نفس العمل بنفس الطريقة، دون أن أفكرَ كثيراً فيما سوف يحدث، عشرات من النصائح كانت تصبها أمي في أذني دون فائدة، وأبي كان يشرح لي كيف أني أتبع طريقاً خطراً، وجدتي تحدثني كثيراً عن مستقبلي الوظيفي، والأسرة الكبيرة التي جعلتني الأقدار مسؤولاً عنها. . كل ذلك لم يكن ليغيرَ من خط سيري، كلماتهم كانت تتساقط، وكأنها نداءات واهنة ضعيفة تافهة لا قيمة لها، ولم أكن لأفكرَ في كلماتهم إلا عندما أقع تحت طائلة العقاب وسخافات «البوليس السياسي».

الآن أمضي بنفس الطريقة الصبيانية. . فتاة في ربيع العمر. . وأنا. . ومستقبلي. . وتحدي التقاليد. . تقاليد البادية والجبل. . المهم أنني لا أعرف بالضبط ما سوف أعملهُ. . أستطيعُ أن أدعَها تخرج بكلمة واحدة، لكني لا أستطيع أن أنطق بهذه الكلمة، لماذا؟؟ لأنني ببساطة أريدها أن تبقى على الرغم من أن بقاءَها قد يجلب لي أضراراً وتعاسة بالنسبة لحياتي الاجتماعية. . حسناً. . فلتبقَ. . وليكن ما يكون. . اشتريت سريرين صغيرين بمستلزماتهما وطاولة للطعام وقدوراً وأطباقاً وبضعةً مقاعد. . ولم أنسَ بعضَ الثياب المنزلية لها، وغير ذلك من الأشياء الضرورية البسيطة لشقة خاوية. . وفي المساء كان كل شيء قد وضع في مكانه وأصبحت الشقة منظمة ومرتبة، كانت تساعدني

في حماسٍ شديدٍ، وكانت السعادة تطفح من وجهها، لم تكن خائفةً، ولم تخجلْ مني، فقد رمت الخمار ولم تعد تضعه على وجهها منذ دخلت إلى هذا المكان، وكانت تردد بعض الأغاني الجبلية التي تعذر عليَّ فهم كلمة واحدة منها، وأحضرت بعض الطعام، ووضعته أمامها:

ـ «لا شك أنك جائعة..».

اندفعت تأكل في شهية واضحةٍ، أما أنا فلم يكن لديّ أدنى رغبة للطعام، كانت تأكل وتشرب دون أن تلتفت إليّ، بينما أشعلت سيجارة، وأخذت أجذب أنفاسها متأملاً.. قالت في دهشة:

ـ «لم لا تأكل؟!».

ـ «لا أريد..».

ـ «ربما قد أكلت في الخارج..».

ـ «أبداً..».

توقفت عن الأكل ونظرت إليّ نظراتٍ غاضبةً، وقالت:

ـ «هل أنت حزين؟!».

ـ «لا.. أنا خائف..».

ـ «لكن الرجال لا يخافون..».

- «الأمر ليس هيناً كما تتصورين».

زمت شفتيها، وهبت واقفة، وقالت في حزم:

- «أتريدني أن أرحل؟».

قلتُ في انزعاج، وقد شعرت فجأةً أن وجودَها ضروري للغاية:

- «مستحيل..».

ضحكت في سرور، ثم أمسكت بنصف رغيف ووضعت فيه عدة قطع من اللحم المشوي، وقالت في إصرار:

- «فلنأكل إذن..».

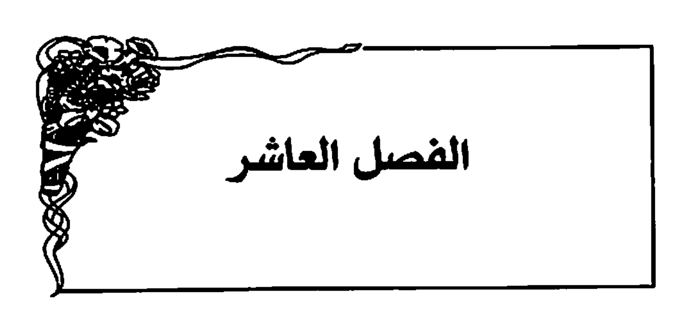
ووجدتني أتناول منها الطعام وأقبل على أكله دون أن أتفوه بكلمة أدرت مفتاح المذياع، فانسابت منه أغنيةٌ بدويةٌ لسميرة توفيق تمتمت مريم:

- «صوتُها جميلٌ..».

- «أتعرفينها..».

- «صوتها مميز وهي.. لكم يحلو لي أن أسمعَها.. إنَّها تشجعني على الرقص..».

***



الفصل العاشر

وذُهِلْتُ إذ رأيت مريم تلفُّ شالاً على وسطها ثم ترقص، الغجرية القديمة تثب في مخيلتي.. الصحراء المترامية.. الخيام.. القهوة، الخيول والسيوف والنشامى على ظهور الخيل.. والجمال الوحشي الذي يسحق كل مقاومة ويدوس كل منطق، وينطلق من قلب الطبيعة العذراء، التي لا تعرف الخوف ولا تعترف بالقيود، وأخيراً جلست تلهث، وضعت أمامها الملابس الجديدة لشدّ ما فرحت بها.. وكانت تقلبها بين يديها في دهشة ومتعة، وتضعها على صدرها محاولة أن تتبين مدى موافقتها لها، ثم تقلبها في سعادةٍ، شعرت برغبة جارفة في النوم، قلت لها:

ـ «مكانك في الغرفة الداخلية وأنا هنا..».

ـ حسناً.. آن أن أذهب..

لكني بقيت أتقلب في فراشي حتى الفجر، إنني متعب

فالطريق من رأس الخيمة إلى دبي غير مرصوف، مليء بالمطبات والكثبان الرملية وهروب مريم أرهقَ رأسي طوالَ المسافة، وأنا في سريري لم أزل أفكر في الغد، أهلها بالتأكيد لن يَكُفُّوا عن البحث عنها، وأنا كيف أبقى هكذا مختبئاً في هذا المكان هذا وضع لا يليق، ولا يقرُّه الدين، ولا يرضى به المجتمع، وكيف أنظر إليها.. إنني أشعر بأنفاسِ الشياطين تفح في جنبات المسكن الصغير، فكيف أنام؟؟

كلما أغمضت عيني أرى وَمَضَاتٍ من نور مختلطة بكتلٍ من الظلام ترتعش في مخيلتي، آلام في عيني من الداخل، الصداع يكاد يحطم رأسي، ومنفضة السجائر قد امتلأت، وهواء الحجرة تلوث تماماً بالدخان حتى أكاد أختنق.. يا إلهي.. النجدة..

❋ ❋ ❋

كنت أعلمها أصول الطهي بالطريقة التي تروق لي، وكانت تُبدي نشاطاً ملحوظاً في فهم كل شيء بسرعة خارقة، وكانت السعادة تلمع على وجهها كلما حققت قدراً من النجاح، واشتريتُ لها ثلاجةً صغيرةً وطباقاً، وغسالةً كانت فرحة بهذه «اللعب» الجديدة المنزلية التي لم تتعود عليها قبل ذلك، وكانت تظن أنها لغزٌ من الألغازِ المحيِّرة. قالت ذاتَ مساء..

- «هل أعجبتك؟؟».

ـ «أنت رائعة».

نظرت عبر النافذة، وهمست في حُزن.

ـ «ليتني أبقى هكذا طولَ عمري.. أغسل لك ملابسَك وأَعُدُّ لك طعامَك وأنظف لك المسكن.. كنت أظن أنني لا أستطيع أن أحبسَ نفسي في أيِّ مسكن مهما كان، لكني لم أشعر بأدنى ضيق من حياتي. لا يهمني الخارج.. عالمي كلُّه في هذا الحيز.. إنه كالجنة.. شيء آخر أشعر به الآن.. يحلو لي دائماً أن أنتظرك.. أعرف يقيناً أنك ستعود، لكني أخاف ألا تعود..».

وتنهدت في ارتياح، ثم شردت بضع لحظات وقالت في شراسة.

ـ «إن من يفكر في أخذي من هنا لن يكون مصيرهُ سوى القتل..».

ضحكت وأنا أردد:

ـ «يا ساتر أستر..».

ـ «هو ذاك.. أريد أن أكونَ على هواي».

ـ «وإذا لم تستطيعي قتله؟؟».

قالت دون تردد:

ـ «أقتل نفسي.. إذ لا قيمة لحياتي إذا خرجتُ من هنا».

قلت وقد طَرِبْتُ لكلماتِها.

ـ «ألا تحنين لأهلك؟».

قالت.

ـ «أنت أهلي..».

نظرت إليها، وقد تبللت عيناها.

ـ «إنني أحبك يا مريم..».

انحنت رأسها وأخذت تبكي، اقتربت منها، وبقيت ساكناً كالصنم، لا أدري ماذا أفعل، وما إن انتهت من بكائها حتى وجدتني أربت على كتفها في حنان وذهلت إذ رأيتها تبتعد عني وتقول وهي تزحف من مكانها، وتنظر إلي في تحذير.

ـ «لا تلمسني.. لست منهن..».

ـ «ما قصدت بك سوءاً..».

ـ «ليس معنا أحد.. لكن ما من قوَّةٍ أن تقهرني..».

ـ «أنت تسيئين الظنَّ بي..»

وقفت، وشردت إلى بعيدٍ، ثم قالت في نبرات حانية:

ـ «أنت أغلى من عيوني..».

ثم استدارت فجأة، وألقت بنفسها بين ذراعي وأخفت وجهها في صدري، واستسلمت تماماً للمساتي، كانت تتشبث بي في قوة، وبقيت هكذا فترة، ثم فكت ذراعيها وهرولت إلى حجرتها.. تذكرت أننا لم نتناول عشاءنا بعد وقررت أن أتركها وشأنها، وذهبت إلى المطبخ لأُعِدَّ لنفسي «سندوتش» لكني سمعت صوتها من الداخل.

ـ ماذا تفعل هناك؟؟.

ـ لا أستطيع أن أنام وأنا جائع..

أنت تأكل هذه الأيام كثيراً، وتنام كثيراً.

ـ العمل مجهد..

ـ حسناً.. لسوف آتي لأساعدك..

ـ استريحي.. فالأمر هين..

ووجدتها تقف خلفي، وتضحك من قلبها ضحكاتٍ بريئةً تتوهج بالسعادة ونحتني جانباً، وهي تقول:

ـ «لا بُدَّ أن أُعِدَّ لك طبقاً من البيض..».

ـ لا داعي لكل هذا..

السمن فوق النار يغلي، وللغليان لحن مميز، وهي من آنٍ لآخر تتكلم، أعطني هذا الطبق أين الملعقة؟؟ خذ هذه السمنة من هنا.. هات الملح من فوق الرَّفِّ.. أنت

تأكل كما يأكل ثلاثة رجال.. أين يذهب هذا الطعامُ كلُّه
كانت تضحك وتتحرك هنا وهناك وترتطم بي مصادفة..
فيشتعل جسدي.. وهي تقهقه وترفع وجهها إليَّ في
سعادة.. قالت:

- «أليس لك أخت..».

قلت في شيء من الأسف:

- «تزوجت ثم ماتت في ريعانِ شبابها..».

- «مسكين..».

- «وأبوك وأمك؟؟».

- «أبي اختاره الله إلى جواره.. وأمي تعيش هناك
بعيداً قربَ الحدود مع العدوّ».

قالت في صدقٍ وتأثر:

- «ليتني أراها، لماذا لم تحضرها معك؟؟».

- «لم أفكرْ في شيء من هذا قبل ذلك.. إنها تأبى
أن تغادرَ بيتّنا القديم.. بل رفضت أن أبني لها بيتاً
جديداً..».

استدارت إليَّ، وتوقفت عن العمل لحظة، ثم
تساءلت.

ـ «لماذا لم تتزوج حتى الآن؟؟».

ـ «كان علي أن أبنيَ مستقبلي أولاً..».

ابتسمت قائلة:

ـ «وما شأنُ الزواج بمستقبلك؟؟».

ـ «الزواج يحتاج إلى إعداد وترتيب واستقرار ومال.. وتفكير..».

همست في شيء من النفور:

ـ «إنك تعقد الأمور.. نحن في الجبل نتزوج عندما نريد ذلك..».

ـ لكنكم تشترطون الصداق (المهر)..

ـ «أجل..».

ـ «المال لا ينزل من السماء..».

ـ «بل ينزل مع المطر.. وينمو مع الزرع ويمشي في ركاب الإبل والشياه..».

ـ «الأمر بالنسبة لي يختلف يا مريم..».

ـ «في الجبل عندما نجوع نأكل.. كذلك عندما نشعر بالرغبة في الزواج نتزوج».

ـ «ليس الموضوع بهذه البساطة..».

ـ «متى تتزوج إذن؟؟».

ـ «إني جائع..».

ـ «وأنا أيضاً جائعة».

ـ «فلنأكل بسرعة.. حان وقتُ النوم..».

ـ «ليس لديك عمل غداً.. ألست في إجازة؟؟».

إنني أحمل عبئاً من الرغبات الطاغية، أحاول أن أجابه جبلاً ضخماً وأريد دفعه إلى الوراء، مشهد مضحك لا شكَّ في ذلك، لن أستطيع زحزحةَ الجبل من مكانه، لكني أقضي وقت فراغي في المجابهة والدفع، فلا أكاد أتوقف ولا الجبل يتراجع. ليكن فإنني أبرد طاقتي المجنونة في هذه المحاولات اليائسة.. ذهب كل منا لينام في حجرته، ولا أدري كم مضى من وقت وأنا نائم، فقد سمعت صراخاً وعويلاً، فانطلقت جارياً عبرَ الظلام، كنت أصطدم ببعض المقاعدِ، وعندما أضأت النور وجدتها منكفئة على سريرها تبكي بحرقة..

ـ «ماذا جرى؟؟».

ـ كاد يقتلني..

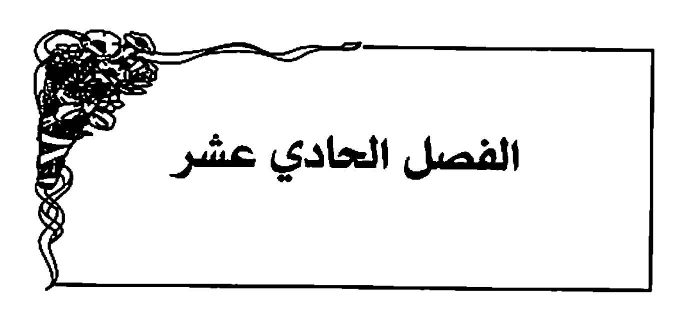
ـ مَنْ؟؟

ـ خميس ولد عمي.. هاجمني كالشيطان بخنجر

مسموم.. ورأيت المطوع حسن بن محمد يلعب بالثعابين في يده.. عبد الله هو الآخر، كان يقف متدلّي الذراعين لا يفعل شيئاً.. أصبحت أخاف النوم والظلام إنهم يطاردونني.

بالطبع فهمت أنها تتحدث عن حلم مزعج، إن صراعها النفسي المخبوء يتفجر بكل ما يعتمل في داخلها وتحاول هي الهرب منه، من العسير أن تنسلخ هكذا دفعة واحدة عن ماضيها في الجبل وأهلها، إنها تكابر وتظهر عدم الاكتراث مع أنها تشقى وتتلظى بجحيم الصراع الذي يجري في كيانها مجرى الدم في عروقها، إن تمردها لا يعني انفصالها التام، أنا أعرف ذلك جيداً هي لم تحسم أمرها تماماً أيمكن «السندريلا» الجميلة أن تنسى ماضيها تماماً، وتنخرط في حياتها الجديدة؟؟

❋ ❋ ❋



الفصل الحادي عشر

هذا وهمٌ، كان يجب أن أفهم ذلك منذ البداية قلت محاولاً اختبارها:

ـ في إمكاني أن آخذَك إلى هناك في أيِّ وقت تشاءين.. هبت من سريرها مذعورة:

ـ ماذا؟؟ مستحيل..

ـ أظنك لن تبقي هنا للأبد.. قالت في إصرار:

ـ بل سأبقى.. سأبقى.. حتى ولو قذفت بي إلى الشارع فسأعيش معك كخادمة.. وإذا رفضت فإني سأتبعك كظلك، وأمشي وراءك أينما رحلت.. لن أفارقك.. قلت:

ـ أهذا هو قرارك النهائي؟؟

ـ قلت ذلك منذ أتيت إلى هنا..

ـ فلتنامي إذن، ولا تحلمي مرةً ثانية..

اضطجعت على سريرها، وابتسمت والدموع لم تزل عالقة بأهدابها، وقالت:

ـ أتجيد استعمال السيف؟؟

ـ لماذا؟؟

ـ وقد تحتاج إليه في وقت من الأوقات..

ـ لا أظن ذلك..

ـ على الأقل للدفاع عني.. ضحكت، قائلاً:

ـ أنا طبيب ولست فارس قبيلة..

ـ فلتكن الاثنين معاً..

ـ إنني أجيد استعمال المسدس والمدفع.

وثبت كقطة وحشية.. ودسَّت يدَها في كيس من القماش ثم أخرجت منه شيئاً، وضغطت بأصبعها، فلمع نصل الخنجر في يدها، الحقيقة أنني أصبت ببعض الخوف، ونظرت إليها في دهشة:

ـ ما هذا؟

ـ الجبل تكثُرُ فيه الأفاعي والوحوش..

ـ لكننا لسنا في الجبل يا مريم..

ـ ليس هناك ما يمنع مجيئها هنا..

ـ آن أن ننامَ يا مريم..

نظرت إليَّ في شيء من الغيظ، ومضيت إلى حجرتي، ولكن النوم لم يقرب جفني بعد ذلك.

كنت أفكر كيف أتصرف لو فوجئت بأبيها أو أحدٍ من قبيلتها؟ إن الاحتمال قائمٌ فعلاً، بأيِّ منطق أسمح لفتاة مثلها تبقى في منزلي، وكيف أواجه الشكوك والصعاب؟ إن الأمر سيتسع نطاقه وقد يصل مسامع الرئاسة، أو حكام المدينة، وقد يرفع إلى القضاء فأقع في مأزق لا فكاك منه، يجب أن أعترف أن موقفي ضعيف، وإني أتصرف كصبي صغير، لماذا المواربة والخداع؟ إنني عاجزٌ عن إخراجها، بل لا يمكنني الاستغناءُ عنها، وذلك لأني أحبُّها، لكن أتصلح زوجةً لي؟ الزواج يبدو هو الحل الوحيد لمثل هذه الورطة، وهو أمرٌ منطقي وميسور لأني أريدها إلى جواري، لكن ماذا بعد أن ينطفىء الوهج، ويروى الظمأ، وتمر الشهور والشهور وننجب الأطفال؟ أيمكن أن يستمر هذا الحب، وتمضي الحياة حسبما نشتهي أم تتمزق العلاقة الحارة ويتمزق معها كياني وأطفالي؟ شيء محيِّر كل ما أعرفه هو أن الأمر يجب أن يحسم على أيِّ وجه، وأنه لا مجال للتردد والإطالة.. وليس هناك من قرار حكيم سوى أن أخبرها بأن تنصرف أعرف أني أحبها حباً جارفاً، فلأسحق مشاعري مَنْ يدري؟؟ قد أنساها بعد فترة، وينتهي كل شيء، أريد أن أكون حاسماً وواضحاً هذه المرة ولن أخدعها، أأتخذها

عشيقة ثم أقذف بها كالخرقة البالية وسط الشارع؟؟ هذا إجرام لا يُقره دين ولا تعترف به إنسانية، فلأقسوَ قليلاً كي أحفظ لها حرمتها، وأجنبها المصيرَ التَّعِسَ، وأنا واثق إنني سأُقاسي من جَرَّاء ذلك أكثرَ مما ستقاسي مريم المسكينة التي لا ذنب لها في نشأتها وظروفها..

أصبح الصباح، كنتُ مكفهرٌ الوجه على غير العادة، أدركت ذلك وأنا أحلق لحيتي، كانت تثرثر وتغني، لكني لم أحفل بها حاولت أن أمضي في طريق العنف حتى النهاية.. قلت لها ونحن نتساقى أقداح الشاي:

- «مريم كوني عاقلة.. يجب أن تعودي إلى أبيك..»

كنت جاداً أدركت هي ذلك على الفور. كانت ذكيةً شديدةَ الحساسيةِ، شحب وجهُها، قالت في هدوء محاولةً أن تحتفظ بكبريائها:

- حسناً.. لسوف أرحل..

لم أرفع رأسي، سمعتها تتحرك في جنبات الشقة، كانت تجمع حاجياتها في سرعة وتوتر، خلعت كل ما أحضرته لها حتى الحذاء البلاستيك الأحمر، ووجدتها تتجه صَوْبَ البابِ حاملةً الكيس القماش القَذِر الذي أتت به.. لا أدري كيف جريت خلفها، وتصديت لها، ومنعتُها من

الخروج وأنا أقول في بلاهة، إنني أمزح.. عودي..
وشعرت.. ما أعجب قلبي.. شعرت براحة كبرى، وذابت
كل أفكار الليل..

طالت غيبة المطوع عن الحي، كما لم تظهر أي
دلائل تشير إلى العثور على مريم، وبرغم مرورِ أكثر من
أسبوعين على حادث الاختفاء، إلا أن التوتر ظلَّ جاثماً
على الجبل، وسوء النية بقي جاثماً في النفوس، وأخذت
النسوة ينسجن الأساطير، ويخترعن الحكايات التي لا
أساس لها من الصحة، وزعم البعض أن جثة فتاة قد
وُجدت طافيةً قرب شاطىء رأس الخيمة ولم يُستَدَلَّ على
هويتها فأجريت لها مراسيم الدفن المعتادة. ومن قائل أنها
توجهت صوب «البحرين» حيث انضمت إلى حاشية بعض
الشيوخ هناك، وآخرون قالوا إن أحدَ المسافرين رآها في
الكويت تركب سيارةً فاخرةً إلى جوارِ أحدِ التجار، وهناك
من قال أنها ركبت إحدى السفن المتجهة إلى الشاطىء
الإيراني للخليج. وكان أبوها المسكين يهرع إلى مصادر
تلك الشائعات ويحاول التحري جاهداً، فيجد ذلك كلَّه
رجماً بالغيب، ومجرد ثرثرة لا معنى لها، ولا طائل
تحتها، وتوجه أبوها صوب مدينة رأس الخيمة، وذهب إلى
المستشفى، فكم كانت خيبةُ أمله كبيرة عندما سأل عني
فقيل له إن الطبيب نُقِلَ إلى «دبي» لقد أتى ليستنير برأيي في

هذا الأمر الذي أقلقه وأحزنه، كانت فاتسالا تعرف علي زيد زيدون «وعندما علمت بقصة اختفاء مريم، أخذت تستفسر عن سبب هروبها، واليوم الذي هربت فيه، عندئذ ثارت في نفسها الشكوك، أيمكن أن يكون لي صلة بهذا الحادث؟؟ هذا ما كانت تفكر فيه فاتسالا، مجرد ارتياب لا أكثر ولا أقل، إذ ليس صدفة أن تختفي في اليوم الذي رحلت أنا فيه، وفاتسالا تعلم أنني كنت أعطف على «مريم» وأستريح لوجودها، كانت فاتسالا تحبني حباً عميقاً، وكانت تغار من أيَّةِ أنثى تقترب مني، بل وتُبدي حماقة وانزعاجاً ظاهرين في كثير من الأحيان، وكانت نقمتها عليَّ شديدة لصلتي بمريم أثناء تواجدها بالمستشفى، وأخذت شكوكها تربو وتتضخم. عندئذ اقتربت من علي زيد زيدون، وقالت له:

ـ «لم لا تذهب إلى دبي وتسأل الطبيب عنها؟؟».

كان الرجلُ يريد أن يفعلَ أيَّ شيء كي يجدَ ابنتَهُ، وكان على استعداد لأن يطرقَ أيَّ باب، أن يذهب إلى أيِّ إنسان، ومن ثَمَّ قرر أن يأتي إلى دبي في اليوم التالي، لكنه عاد عصر ذلك اليوم الذي قابل فيه فاتسالا إلى الجبل كي يُعِدَّ نفسه، وفوجىء في الجبل بوجود المطوع حسن بن محمد، كان حسن مكتئبَ الوجه، كسيرَ القلب.

ـ «طالت غيبتك يا مطوع».

ـ «الطريق طويل..».

ـ «هل اهتديت إلى شيء».

ـ «إنَّ من سار على الدرب وصل..».

ـ «عُمان كلها دروب..».

ـ «سأسير في كل اتجاه بحثاً عنها..».

ـ «إذن فأنت يا مطوع لم تعثر لها على أثر».

ـ «إنني أشَمُّ رائحتَها هناك في دبي.. ولا بُدَّ أن أجدَها..».

تنهد علي زيد زيدون في حسرة، وقال:

ـ «قالوا في البحرين.. في الكويت.. في دبي.. في قطر.. في أبو ظبي.. الحقيقة ضائعة يا مطوع.. ومريم أورثتنا العار والنكد ـ كثيراً ما أتصور نفسي قابضاً على معصمها وأنهال عليها طعناً بالخنجر، إنني أُعاني من الغيظِ المكتومِ وأكاد أنفجر». هز المطوع رأسه قائلاً:

ـ «من اعتصم بالصبر نجا.. تعلمت من الإبل أن أصبرَ على الظمأ، ودائماً تنتهي رحلتي بالعثور على النبع.. عندئذ أشعر بحلاوة الماء وكأنه أشهى شيء في الدنيا..».

ـ «إنه الشرف يا مطوع، فكيف الصبر عليه؟».

ـ «أجلْ.. كيف الصبر عليه؟؟ لكن هناك وسيلة أخرى!!».

ضرب علي زيد زيدون كفّاً بكفٍّ، وقال:

ـ «لا حيلة.. ليتها ماتت..».

ـ «لا تقل هذا الكلام.. الرزق والأجل من أمر الله».

ـ «آمنتُ بالله..».

ـ «ستعودُ مريم يا علي ذاتَ مساء..».

ـ «سأسفك دمها..» ضحك المطوع، قائلاً:

«لا.. بل ستدق الطبول، وتملأ الجبل بالأفراح، إنها ابنة سيدنا أعظمُ من أنجبت الشحوحُ من النساء.. إنها عِقْدُ الجواهرِ في جِيْدِ القبيلة..».

ـ «ليكن..».

استطرد المطوع قائلاً:

ـ «هي العبير الحلو في جَنَبَاتِ الأرضِ الخراب».

ـ «تلك التعسة..!».

ـ «وهي الزهرةُ النَّدِيَّة يا علي في بستان جَفَّتْ أعواده..» ثار عليٌّ قائلاً:

ـ «لا تقل هذا الكلام.. إنني أكرهها.. أكرهها..».

ضحك المطوع:

- «بل أنت تحبها.. تحبها.. فلتصدق.. لأن الصدق هو الإيمان الأكبر». أخذ علي يتمتم.. بذلت لها العطف، أعطيتها كلَّ ما تريد.. أحطها بالخدم.. لم أقسُ عليها، أو أُشعِرْها بالحرمان، حاولت أن أسترها وأبحث لها عن حياة زوجية تتناسب وقدرها وقدر أبيها: لكنها كانت مغرورة ساذجة أحبت تافهاً كعبد الله.. وتمردت على رجل أصيل كخميس.. وتجنت على رجل فاضلٍ مثلِك، لم يعجبها أحدٌ في القبيلة.. كانت تنظر إلى السماء، وتعيش في الأحلام، وتتوهم أشياء لا وجود لها، بل إنها تريد أشياء لا تعرفها.. زعمت أنها لا تريد الزواج، هل سمعت بامرأة تعيش بلا رجل؟؟ الرجل زينةُ المرأة، والمرأة زينة الرجل، برغم المُنَغِّصَاتِ التي تعترض حياتهما.. إنني أريد أن أعرف ماذا تريد!! قل لي هل أخطأت في حقها؟؟. قال المطوع:

- «أنت أكثرت من تدليلها..».

- «التدليل لا يمنع البنت من التفكير في الزواج..».

- «هذه مشكلة تُحَلُّ مع الزمن..».

- «لكني كنت أخاف الانحراف..».

عبث المطوع بلحيته، قائلاً:

ـ «دعْ الأمرَ لي. . إذا تزوجتها فستجد ابنتك ترفل في السعادة التي ما حلمت بها قط. .» بسط على كفيه متحسراً وقال:

ـ «وأين هي الآن؟؟ أنا أبوها. . أنا أمها. . أنا أخوها. . ترى كيف تأكل، وكيف تنام، وهل تعرضت لِعَبَثِ ذئابِ البشر؟؟ أصبح واضحاً أنَّ خميس لا يعرف عن طريقها شيئاً، وأن عبد الله هو الآخر أحمق لا يدري أين ذهبت. . وأنت يا مطوع تلفُّ وتدورُ حاملاً كتبك وأسفارك دون أن تستدلَّ عليها. . هل ابتلعتها الأرض؟» قال المطوع في ثقة:

ـ «بل سأجدها بإذن الله، لكل أجلٍ كتاب».

ـ «وأنا ذاهب إلى دبي غداً. .».

ـ «لقد قدمتُ لتوي من هناك. .».

ـ «هل سألت الطبيب؟؟».

ـ «أي طبيب؟!».

ـ «ذلك الذي كان يعالجها في رأس الخيمة. لقد ارتحل إلى دبي إنه يعرفها وهي تحتاج إليه في أزمةِ الربو».

❋ ❋ ❋

انتشر الليل وبسط أجنحته السوداء على الجبل. واسترخت الإبلُ والشاة، وأوى الناسُ إلى مضاجعهم، وقال المطوع:

- «حسنٌ.. دعْ هذا الأمر لي.. سأرحل غداً أو بعد غدٍ إلى دبي، ولتبق أنت..».

- «أتعرف الطبيب جيداً..».

- «تمام المعرفة.. وهناك مظان أخرى سأبحث فيها، إنني على وشك العثور عليها، ولديَّ معلومات قَيِّمَة في هذا الشأن.. فقد عرفت السيارة التي ركبت فيها، والمال الذي كان معها.. عرفت الكثير.. وسأهتدي إليها بإذن الله..».

فوافق علي زيد زيدون على ذلك، كان يكره السفر في هذه الأوقات، ولا يريد أن يراه الناس ينتقل من مكان إلى مكان، أصبحت نظراتُهم إليه تُزعجه، كل نظرة يفسرها بطريقة تبعث الأسى والألم في نفسه، لا شكَّ أنهم يسخرون منه، ويشمتون فيه، وهو الذي لم يطأطىء رأسه لأحد ولم يرتكب عاراً، ولم يُقدِمْ على فعل يُنْقِصُ من قدره أو هيبته، مريم هي التي جلبت له الذلَّ والمهانةَ.. سامحها الله.. وقبيل الفجر انطلق المطوع حسن بن محمد عائداً إلى دبي مرة أخرى، لقد أدرك على التو قيمة الكلمات التي تكلم بها علي زيد زيدون، وهو كان يشعر دائماً أنه يكرهني.. يكرهني كطبيب.. منذ أن رآني، وأنا الآخر لم أكن مرتاحاً لتصرفاته عندما ذهبت إلى الجبل..

❋ ❋ ❋

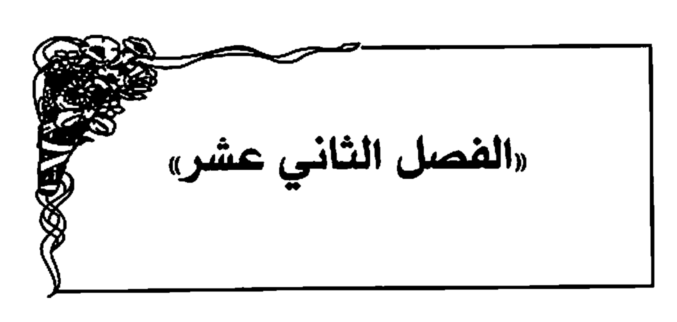
شعرت أن أحوالي على ما يرام، أحداث الفترة السابقة تركت بصماتها على تصرفاتي، مشكلة «مريم» المعقدة تؤرقني وتورثني حيرةً قاتلة، إن البيئة التي أعيش فيها بيئة لها تقاليدها، وهذه التقاليد لها قوة القانون، لم يفت ذلك زملائي في المستشفى، أكثر من واحد سألني عن سرِّ انعزالي وشرودي وتناقصِ وزني، وشحوبِ وجهي، لم يكن لدي ما يمكنني أن أقوله ليتني أستطيع أن أخفف عن بعض ما بي، وأتدارس الأمر مع أحد أصدقائي، فلا مناصَ أن أطوي جوانحي على سري، وأجترُّ وحدي آلامي وحيرتي، ووثبت إلى ذهني فكرة.. لقد مرَّ عليَّ عامان دون أن آخذَ إجازتي المستحقة، لماذا لا أفكر في السفر؟؟ آه.. وكيف أتصرف مع «مريم»؟؟ ومع ذلك فقد قررتُ السفر وسأترك لها حرية التصرف في العودة إلى أبيها أو الذهاب إلى أيِّ مكان تراه حتى أعود.. إن السفر أصبح ضرورةً ملحة بالنسبة لي وإلا انهارت أعصابي، هو علاج.. وتقدمت على الفور بطلب ونلت الموافقة.. وعدت إلى المسكن بعد انتهاء العمل وقد كنت منتدباً للعمل بإمارة الشارقة لمدةِ ثلاثة أيام كانت مريم منهمكةً في غسل الملابس، وعندما جلسنا بعد فترة على مائدة الطعام، قلت وأنا أتوجس خِيفةً:

ـ سأسافر يا مريم.

ـ «إلى أين؟؟».

ـ «جولة في الكويت.. أو سوريا أو الأردن.. أو فلسطين.. ولبنان.. حوالي شهرين أعود بعدهما.. ولن أستطيعَ الذهاب إلى العراق لأسباب سياسية».

❋ ❋ ❋



«الفصل الثاني عشر»

نظرت إليه في دهشة، ثم اكتسى وجهُها بالفرحةِ الغامرة، وقالت:

ـ لطالما كنت أحلم بذلك..

هتفت وأنا لا أكاد أصدق:

ـ ماذا؟؟

فلم تَرُدَّ على تساؤلي وانطلقت وثباً إلى الداخل ثم عادت وفي يدها جواز سفر، قلت:

ـ ما هذا؟

ـ جواز سفر.. أنا وأبي نملك جواز سفر أخذناه من حاكم رأس الخيمة..

ـ.. حاكم رأس الخيمة.. لكن لا يمكن أن تسافري معي..

اكفهرَّ وجهُها وقالت محتدة:

ـ كيف؟. . .

ـ افهمي الأمر جيداً يا مريم. . ما معنى أن آخذ بنت شيخ القبيلة وأسافر خارج الوطن؟ هذه مسئولية كبرى، بأيِّ حق تسافرين معي. .؟ لو طلبني أبوك أمام القضاء لأدَّى ذلك إلى تعقيدات كثيرة.

ـ لا تذكرْ قبيلتي مرة ثانية. . أنا بالنسبة لهم مجرد فتاة انتهت. . ماتت. . الهربُ لا يعني سوى ذلك. .

واختطفت يدي دون أن أنتبه إلى ذلك وأخذت تقبلها، وتضرع إليَّ بعينيها الجميلتين، وترجوني في إلحاح ألاَّ أحرمَها هذه الفرصة لأنها فِرصة العمر. وتمتمت:

ـ أريد أن أرى الدنيا. .

ـ هذا أمر خطير.

ـ إن خارج هذه الدائرة عالم غريب. . لا تحرمني هذه المتعة، وسأكون خادمتك أينما رحلت. . مجرد خادمة لا أكثر. . أتوسل إليك. . ثم ضمت جواز سفرها إلى صدرها، وأخذت تتمايل وتدور في أنحاء الشقة الصغيرة، وكأنها في حلم بهيج، وتمتمت: «وهناك. . في العالم البعيد الجميل. . سأرى ما كنت أراه صوراً في السينما. . سأراه حقيقةً وألمسه بيديّ»، ثم التفتت إليَّ قائلة:

ـ أنت لا تدري كم أحبك. . أنت أغلى إنسان عندي

في الوجود.. إنك فتحت عينيَّ وأذنيَّ على الدنيا الحقيقية.. الجبل كالسجن المخيف.. قلعة مرعبة تحميها الأكاذيب، ويحرسها الكلاب، وتطلُّ عليها الشمس المحرقة، والتقاليد الميتة.. اللعنة على كل الخائفين.. ترددت أصداء كلماتها الأخيرة «اللعنة على كل الخائفين».. ترددت أصداؤها في رأسي.. الخوف مقبرة.. أو سيف بتَّار يقطع أوصال السعادة ويسفح دمها.. ولماذا أخاف؟؟ فلأنطلق.. الخوف هو الذي جعل أسرتي تترك أموالها وممتلكاتها وتفرّ هاربةً أمام الطغيان السياسي الحاقد.. والخوف أضاع مني فرصاً ذهبيةً كثيرةً..

قلت لمريم:

ـ لبنان عالم لا تستطيعين أن تعيشي فيه. إنه ليس عالمك.. بركت أمامي وهي تقول:

ـ سأتفرج عليه.. لن ألمسه..

ـ وبعد أن تعودي يا مريم.. سيصبح الذهاب إلى جبل الشحوح مرةً ثانيةً كالذهاب إلى ساحة الإعدام..

هزت رأسَها قائلةً:

ـ أعلم ذلك.. منذ أن أتيت إلى هنا، وأنا لا أفكر في العودة..

ـ وأبوك.. خميس.. عبد الله.. المطوع.. العجوز

الذي في بيتكم؟؟ أشاحت بوجهها في ضيق قائلة:

ـ لا تذكرهم بالله عليك..

ـ لا أتصور أنك يا مريم بنت أصيلة للجبل.. إنك تتصرفين بطريقة ما سمعت بها قط، ولا يمكن أن تتفق مع طبيعة الجبل. والقبيلة.. دارت في جنبات الغرفة كالحالمة، كانت تنظر إلى السقف بعينين شاعرتين، وتتنهد.. وقالت:

ـ ربما تكون الشياطين قد لبست جسدي.. إن المطوع يفعل بنا الأفاعيل.. ويستخدم الجانّ.. أأقول لك حقيقة لم تسمع بها من قبل؟؟ قلت في لهفة:

ـ ماذا؟

قالت محذرة وهي تلوح بسبابتها:

ـ إن سمعها أبي منك ذاتَ يوم حطم جمجمتك.

ـ تكلمي..

ـ يزعم البعض في الجبل أن أمي ماتت ميتة غير طبيعية:

ـ كيف؟

ـ يقولون إن أبي قتلها!

ـ كيف؟

ـ لا أدري سوى أنها كانت رائعة الجمال، وأنه كان يحبها.. وكان أفراد القبيلة يركعون تحت أقدامها، ولا يردون لها طلباً.. الأمر غامض.. والسر في بئر عميق، ولم أجرؤ في يوم من الأيام أن أسأل أبي عنه..

ثم هزت كتفيها قائلة:

ـ من يدري؟؟ ربما يكون الأمر مجرد أكذوبة لا أصلَ لها.. والنساء الفاتنات عادة ينسج من حولهن الأساطير..

ثم اقتربت مني وقالت: أحبك بشدة.

قالت والدموع في عينيها:

ـ وأنت؟

ـ إن حبي لك لا يوصف.. أنا حزين فقط لمسألة الهروب هذه لكن أحبك أكثرَ من أيٍّ إنسان آخر في الوجود.. كنت دائماً أحلم بأن تكوني لي.. لأني لمست فيك العفة والإباء قالت وهي تجفف الدموع:

ـ وهذا يخفف الكثير من آلامي.. كلما فكرت في هروبي الذي يؤرقني وانطلقت بعد ساعة إلى شركة الطيران لحجز تذكرتين للسفر إلى لبنان مباشرة في أقرب فرصة، وقررت الزواج منها.

في الليلة التالية، قبيل السفر بيوم، قلت لها في شرود:

ـ أحبُّ الغابات ـ والجبال.. أُحبُّ الطبيعة.. أعيشُ بقلب شاعر.. وأنت يا مريم أمنيتي.. أنت الغابات.. والخضرة.. والصفاء.. والطبيعة.. أنت القصيدة التي أحلم بالترنم بها من قديم..

ضحكت من أعماقها وقالت:

ـ لا أفهم كثيراً مما تقول، ولكن إحساسي يؤكد لي أن ذلك كله معناه أنك تحبني.. لكن حبّك لن يرقى إلى مرتبة حبي الذي لا شبيه له في الوجود... عاد المطوع إلى دبي كان يجلس أمام المستشفى في انتظار الطبيب. لكن اليوم مرَّ دون أن يعثر له على أثر، وفي اليوم التالي هرول إلى أحد الأطباء يسأله عني، فأخبره الطبيب أنني لن أحضر إلى المستشفى إلا بعد يومين.. ولما سأل المطوع عن السبب كان الطبيب قد دلف إلى الداخل، وحاول المطوع أن يسألَ عن عنواني فلم يرشده أحد وقبيل سفري بساعة واحدة تذكرت أن مفاتيح مكتبي يجب أن أسلمها لأمين المستشفى، فأسرعت إلى هناك، وتوقف سائق التاكسي بعيداً عن المستشفى، ومعه الحقائب، ومريم تجلس في المقعد الخلفي للسيارة، وعدت بعد لحظات، وقلت للسائق الهندي وقد جلست إلى جواره:

ـ انطلق بسرعة إلى المطار.

تحركت السيارة ببطىء في البداية، كي تمرَّ بمنحنى في بداية الطريق، ولدى المنحنى صرخت مريم في رعب:

ـ ها هو..

ـ من؟

ـ المطوع حسن بن محمد..

هتفت قائلاً للسائق بالإنجليزية.

ـ انطلق بسرعة.. بسرعة.. بسرعة..

وسمعت المطوع يصيح بأعلى صوته في دهشة، ويجري خلفَ السيارة:

ـ مريم.. مريم..

لكنَّ نداءه ذاب في ذيل الغبار المثار خلف السيارة، وحجبته الضجة وتهنا في زحام السيارات الرائحة والغادية، كانت مريم ترتجف كفرخ صغير بَلَّلَهُ المطرُ في يوم بارد، كنت أراها في المرآة التي أمام السائق، استدرت صوبها وقلت في ثقة وقلبي يدق، محاولاً التماسك:

ـ لا تكترثي له.. لن يلحق بنا.. ولن يتبادر إلى ذهنه أننا في الطريق إلى المطار..

ـ قد يسأل أحد زملائك في المستشفى.

ـ لا أظن، فلن يخطر على باله أننا سنغادر البلاد.. وزملائي أنفسهم لا يعرفون موعد سفري.

تنهدت في ارتياح، لكنها كانت تنظر من آن لآخر عبر الزجاج الخلفي، وأرى علامات الارتباك تبدو عليها كلما حاولت سيارة أن تلحق بنا وتمرق من جوارنا، كانت تتلفت في ذعر وتتمتم:

ـ إنهم قساة لا يعرفون الرحمة.. أنا أعرفهم جيداً.. ولهذا هجرتهم ولن أعودَ، وإن عدت فسأقتل نفسي..

قلت مؤكداً:

ـ يا حبيبتي لا تنزعجي، فلم يبق على موعد قيام الطائرة سوى نصف ساعة، وهذا الوقت يكفي بالكاد لعمل إجراءات الوزن والدخول إلى الطائرة..

وأوصيتها أن تتصرف بهدوء وروية في المطار حتى لا تلفت نظر أحد، كما أكدت عليها أن تضع خماراً سميكاً على وجهها، وقلت لها أن تتبعني وتفعل مثلما أفعلْ، ولا داعيَ لأن تناقشني في شيء، وكأننا مسافران منفصلان ولن تستغرق هذه الأمور أكثر من ثلث ساعة، فإذا ما حلقت بنا الطائرة في الجو، فلتتركي كلَّ هذه القيود، وتجلسي إلى جواري.. ويكون الأمر قد تَمَّ على خير ما يرام، وفي

المطار حرصت مريم على أن تنفذ كل ما أمرتها به، ثم صعدنا إلى الطائرة، جلست هي إلى جوار النافذة، وجلست أنا بجوارها وعلى يساري جلس مسافر ثالث يبدو أنه أوربي، كانت مريم تنظر إلى سقف الطائرة، ثم تتابع المسافرين الداخلين وكأنَّها في حلم، وتبتسم في سذاجة، وسمعت صوت الميكرفون ينصح بعدم التدخين، وربط الأحزمة، فضحكت وحاولت أن تكتم ضحكاتها، فمددت يدي وأخرجت لها حزام الأمان وشرحت لها كيف تستعمله، وبعد أن أحكمت قفله، حاولت أن تقوم فلم تستطع، فهمست في براءة:

- إنه يخنقني..

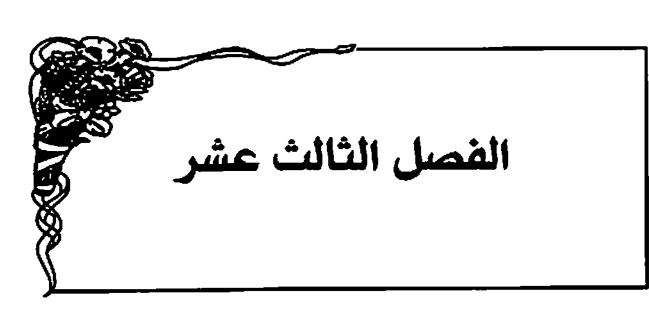
- دقائق ثم نفكه..

- لماذا هذا الحزام؟

وأخذتُ أشرح لها الفكرة، وهي تستمعُ بكلِّ جوارحها وتحركت الطائرة، ثم حلقت في الفضاء ونظرت مريم من النافذة، وهتفت:

- يا إلهي.. انظر.. نحن في الهواء.. والمدينة كاللعب الصغيرة.. يا إلهي.. انظر.. نحن فوق البحر.. إنني خائفة ولا أعرف العَوْمَ.. لماذا لا تتجنب الطائرة طريق البحر..

***



الفصل الثالث عشر

كانت تتكلم بصوت يكاد يكون مرتفعاً، مما جعلني أشعرُ ببعض الحرجِ، وخاصةً بعد أن رأيت المسافر الذي يجلس أمامها، يقِظاً باسماً، ثم ينظر إليها ويعود إلى جلسته، مما جعلني ألفت نظرها بأن تخفض من صوتها، وتقلل من تعليقاتها، وبعد فترة أتت المضيفة ورطنت بكلمات أجنبية فهزت رأسي باسماً، بينما هتفت بتبسم:

ـ ماذا تقول هذه البنت؟

ـ تطلب منا أن نفك الأحزمة.

ـ وماذا تفعل هنا؟

ـ مضيفة . .

ـ تقصد أنها صاحبة الطائرة؟

ـ الطائرة تملكها شركة إنجليزية . .

ـ هزت مريم رأسها دون أن تفهم ما تريد، ثم

حاولت فكَّ الحزام ففشلت ففككته لها، فابتسمت وتنهدت في ارتياح، ثم عبست فجأة وقالت:

ـ أيمكن للمطوع حسن بن محمد أن يلحق بنا..

ـ مستحيل.. حتى ولو كان له جناحان..

ـ أقصد في لبنان..

ـ لبنان كبيرة..

ـ هذا الملعون يستخدم الجان.

ـ هراء.. الجانُّ نفسُه لن يعثرَ لنا على أثر..

ـ إنك تتكلم بثقة، وأنا أصدقُ كلَّ ما تقوله:

ـ اطمئني تماماً يا مريم.. صمتت برهةً، ثُمَّ عادت تقول:

ـ وبعد أن نعود إلى دبي، سيكون الجبل ثائراً ملتهباً كالحريق.. وأبي لن يغفرها لي..

ـ لا تفكري في ذلك الآن..

ـ أليس في هذا العالم الواسع مكانٌ نهرب إليه فلا يأتي إلينا أحدٌ من هذا الجبل؟؟. قلت وأنا أتطلع عبرَ النافذة:

ـ انظري. السحاب تحتنا..

ـ عجيب. . نحن فوق السحاب.

ـ أجل. .

ـ لقد اقتربنا كثيراً من الله. .

ـ الله في كل مكان. في السماء. . في الأرض.

ـ همست قائلة.

ـ لكنهم في جبل الشحوح لا يعرفونه جيداً.

ـ دعكِ من الجبل. . تنهدتْ مرةً أخرى، وقالت:

ـ أشعر بالسعادة وأنا أحلق في الأعالي. . إننا نمر فوق قمم الجبال. . هي دوننا بكثير. نكاد نلمس النجوم والقمر. . قلت وأنا أنظر إلى وجهها الفاتنِ المشرقِ.

ـ أنت القمر. .

لا ترفع صوتك. . إنني أشعر بالخجل من هذا الكلام الحلو. . وتضاحكنا، ثم قالت:

ـ إنني خائفة. .

ـ لماذا؟

ـ يبدو أن الطائرة متوقفة. .

ـ مجرد وهم. . إنها تنطلق بسرعةٍ رهيبةٍ. . استدارت صوبي قائلة:

ـ ماذا لو تعطلت الطائرة في السماء، ولا يوجد مكان تأوي إليه؟

قلت لها وأنا أضحك:

ـ سوف نهبط إلى الأرض متعانقين.. لكزتني بِرُسْغِها قائلة:

ـ أنت تمزح.. هذا السؤال يحيرني:

ـ حسناً.. ستسقط الطائرة..

ـ ثم ماذا؟

ـ ونموت.. قالت في غضب:

ـ لكني لا أريد أن أموت الآن.

ـ لماذا؟

ـ لأني أحبُّ الحياة.. أحبُّك أنت.

ـ سيبقى الحبُّ خالداً..

ـ أنت تضحك عليّ، لا قيمة للحبّ بعد أن نموت.. الحب مرتبط بالحياة.. لا حب في الموت.. كانت كلماتُها حلوةً فيّاضةً بالقوة والأمل والذكاء والبساطة، وعادت تلكزني مرة ثانية:

ـ لماذا تنظر للمضيفة هكذا؟؟

قلت معابثاً:

ـ لأنها جميلة..

ثم قالت ملوحة بسبابتها، وعيناها تبرقان بريقاً ممتعاً:

ـ حذار لو فكرت في امرأة غيري لخنقتك. .

أمسكت بيدها وضغطت عليها في حنان، وقلت:

ـ أنت أميرتي الجميلة.

وأقبلت المضيفة ومعها الطعام، فتناولته منها، ووضعته أمام «مريم» ثم تناولت طعامي أنا الآخر، وبدأت في الأكل بينما ظلت مريم لا تحرك ساكناً.

ـ ألا تأكلين؟؟

ـ لا أحبُّ هذا الطعام. . وتناولت رغيفاً، وأخذت تقضم منه في حياء وأدركت على الفور أنها لم تتقن بعد استعمال الشوكة والسكين. فأخذت أقطع لها الشرائح ثم أغرز فيها الشوكة وأناولها في فمها لكنها أدارت وجهها بعيداً، وقالت في حزم:

ـ عيب. . ماذا يقول الناس؟؟

ـ إنهم لا يكترثون لذلك. .

ـ أستطيع أن أستعمل الشوكة الآن. . لكنها لم تتناول إلا القليل وشربت الشاي، ثم أخذت تتابعني وأنا آكل، وعادت للحديث عن الجبل مرةً أخرى:

ـ لا أدري ماذا سيقول الناس عنّا في الجبل بعد أن

يخبرهم المطوع بما رأى؟؟ إن أبي سيجن جنونه، وخميس سيحمل غدارته ويأتي للبحث عنك في دبي.. قلت في شيء من الضيق:

ـ وعبد الله؟؟

لوت شفتها السفلى في سخرية، وقالت:

ـ إنه جبان لن يغادر الجبل..

ـ والمطوع؟؟

ـ أخطرهم جميعاً.. وهو يكرهك بقدر ما يطمع فيَّ.. لكن قامته لن تبلغ السحاب، ويده لن تطولنا في بيروت فليحترق بعذاب الغيرة والعجز.. ثم لصقت بي وهمست قائلة:

ـ أنت أعظمُ رجلاً في الوجود.. وتستطيع أن تقهر كلَّ رجال الجبل..

ـ بالله عليك لا تذْكري الجبل، فأنا في القتال لا أساوي درهماً.

قالت غاضبة:

ـ أنا أعرفك.. لا تقل هذا الكلام..

عندما حلقنا فوق بيروت، همست:

ـ حمداً لله على السلامة . .

ـ بيروت؟؟

ـ نعم . . انظري . .

ـ البحر . . والجبل . . والسماء الزرقاء . . والأشجار الخضراء . . النباتات الجميلة . . وهبطت الطائرة في أرض المطار بسلامة، ونزل الركاب . . قلت لها وأنا أتقدم صوبَ موظف الجوازات :

ـ هنا حريةٌ مطلقة . . لا حرج في شيء . . قالت في إصرار :

ـ لا بدَّ أن نعقد قراننا أوّلَ شيء . .

ـ ليس هنا في المطار . . عندما ركبنا سيارة الأجرة قلت للسائق :

ـ إلى الجبل . . سوق الغرب . .

قالت في احتجاج :

ـ لماذا الجبل بالذات؟؟

ـ الجبل هنا يختلف عن الجبل هناك في كل شيء .

ـ حتى الجبال أنواع . .

قالت وهي تتطلع عبر نافذة السيارة :

- الجوُّ هنا بارد رائع.. انظر.. يا لَلعار.. الرجل يطوق المرأةَ بذراعه في الشارع لا يفعلون شيئاً.. ما هذا الذي أرى؟؟ يا للصبية!! كنت أضحك، والسائق هو الآخر يضحك ويقول:

- يستمتعون بالدنيا..

وقصدت سمساراً أعرفه من قديم. فأرشدني إلى بيت صغير مناسب مفروش به حجرتان وصالة. فأعجبت به مريم، وبعد فترة قصيرة كنا وحيدين في بيتنا الأنيق على الجبل، الجبل الهادىء الأخضر، والذي يطلُّ على مناظر طبيعية رائعة، كانت مريم تجلس قُبالتّها وكأنها متصوف يبتهل إلى الله..

كانت الليلة الأولى عامرةً بالأفراح والأمل.. وفي اليوم التالي أتممنا كلَّ شيء يتعلق بالزواج. وأصبحت مريم زوجةً شرعيةً لي.

***

المطوع حسن بن محمد لم يكن يصدق عينيه، لكنه رآها وهي تجلس داخلَ السيارة. مريم بعينيها، إنه يعرفها جيداً، ثم رأى الطبيب يجلس في المقدمة.. أجل رآني والمطوع له عينان كعيني الصقر، وجرى خلفَنا يصيح.. ثم أخذ يدور كالمجنون في أحد الميادين بعد أن فشل في اللحاقِ بنا، ماذا يفعل، إنه لا يعرف لنا مسكناً، فليعد إلى

المستشفى لينتظرني هناك، قرر أنه لن يغادر باب المستشفى لا ليلاً، ولا نهاراً، ولما طال به الانتظار هب إلى الأطباء، ثم إلى مدير المستشفى يسأل عني، وكم كانت خيبةُ أمله كبيرة عندما علم أنني قمتُ بإجازة طويلة، سأقضيها في ربوع لبنان، وسأتجول في بعض البلاد العربية الأخرى، وشدَّ الرحال فوراً إلى جبل الشحوح. لقد كان الغيظُ يأكل قلبه، والحقد يعمي بصيرته، ومن ثَمَّ لم يقصد إلى شيخ القبيلة علي زيد زيدون، بل وقف على مرتفع عالٍ، وأخذ يصيح منادياً على كل من في الحيِّ، فحضر كثيرٌ من الرجال والأطفال والنسوة، ثم أعلن أمام الجميع أنني اختطفت «مريم» بعد أن هربت إليَّ وسافرت بها خارج البلاد وشرح لهم أن الأمر الآن لم يعد يتعلق بمريم وأبيها وحدهما وإنما يتعلق بكرامة الشحوح جميعاً وبشرفهم ولا بُدَّ من عمل حاسم ينقذ سمعةَ الحيِّ، ويرد الاعتبار إلى الجميع.

نظر عبد الله ـ وكان واقفاً ـ إلى خميس نظرةً تحمِلُ آلافَ المعاني وتمتم:

ـ كان الأجدرُ بك أن تأكل أذنَ الطبيب.. بل كبدَه.. طأطأ خميس رأسَه في استحياء، وقال:

ـ لم يكن أحد يتصور ذلك.. لقد فعلها ذلك الخبيث، ولا بُدَّ من العقاب الرادع وإن طال الزمن..

وشعر عبد الله هو الآخر بحقد بالغ. لقد أَفْلَتَ الطائر الجميل من يده أصبح يشعر اليوم برغبة جارفة مجنونة تشده إلى «مريم» أخذ يتصور اللحظات الجميلة التي قضاها معها أيام أن كان حبل الوُد متصلاً بينهما، يا لَه من تَعِسِ الحظ، لماذا لم يهتبل الفرصة، ويضحِ بأعز ما يملك حتى يسعد معها، ويأخذها لنفسه؟؟ وبدا أن هذا الخبر الذي فجره المطوع بين أبناء الحيّ كالقنبلة الشديدة الانفجار. بدا هذا الخبر وكأنَّه قد محا كلَّ العداوات القديمة، وجمع القلوب على معنى واحد وهو لا بُدَّ من إعادة «مريم» ولا بد من الانتقام من الغريب الذي تجرَّأ وآواها لديه. صوروا الأمر على أنه عملية خطف مدبرة، وجريمة متعمدة، وكان السؤال الحائر: إلى أيِّ مدى وصلت علاقتها بي؟؟

وكان هناك شبه إجماع على أن العلاقة المتصورة بيني وبينها لا بُدَّ وأن تكون مهما كانت، وصلت إلى مرحلة من السوء لا تَسُرُّ أحداً، وهمست امرأةٌ عجوز بينها وبين نفسها: «مريم» فاجرةٌ مثلُ أمِّها تماماً.

وعاد المطوع يقول:

ـ كيف نواجه القبائل المجاورة؟؟ لم يعدْ للحياة معنى وقد مرغت مريم شرفنا في الرَّغام. وزمجر الرجال، ومصمصت النسوة، وصمت الأطفال، لكن فتاة في سنِّ المراهقة، قالت لزميلة لها: ـ «مريم في منتهى الجرأة..

ترى ماذا تفعل الآن مع الطبيب؟؟ أنا أعرفها، إنها لا تعبأ بشيء، لا شكَّ أنها تفعل ما يحلو لها» لكزتها زميلتها في حياء، وقالت:

«اسكتي.. ألا تتمنين أن تسافري إلى تلك البلاد البعيدة؟ شهقت الفتاة الأولى قائلة: «يا للمصيبة!!!» ومع ذلك فقد نظرت إلى السماء الزرقاء الصافية وشردت بذهنها إلى بعيد، ثم تمطت، وخيالها توشيه الألوان الزاهية، العواصف الجامحة، وأمالي المراهقات المحرومات، ثم عادت تقول:

«مريم تستحق القتل» همست الثانية:

- لماذا؟

- أتفرُّ مع رجل غريب، وتعيش معه تحت سقفٍ واحد؟

- ربما تكون قد تزوجته..

- بدون أمر أبيها؟

- أبوها يريد لها زوجاً لا تحبُّه..

- أبوها على حق.. هزَّتْ كتفيها في ضيق:

- الآباء لا بُدَّ وأن يكونوا على حق..

- بالطبع.. هذا هو الأدب والأخلاق..

ـ المطوع يكاد يجن.. لقد بطل سحرُه..

ـ وخميس وعبد الله يسود وجههما الشحوب.

ـ لقد ذهبت مريم ولن تعود.

ـ أتراها سعيدة الآن..

ـ هي لا تفكر إلا في نفسِها. ولا تخافُ من أحد، لقد دَلَّلَها أبوها.. استدارت الفتاة نحو زميلتها، وقالت:

ـ إنه عارٌ كبيرٌ..

لكن الأخرى، قالت:

ـ ألا تفعلين مثلها لو أتيحت لك الفرصة؟

قالت مستنكرة:

ـ أنا؟؟ أعوذ بالله.. هل جننت..

ـ لكن الطبيب فتى تعشقه النساء.. الفرقُ بينه وبين خميس شاسع كالفرق بين السماء والأرض..

ـ أجلْ.. لكن.

ـ لكن ماذا؟ نحن لا نعرف الحقيقة..

ـ الأمر لا يحتاج إلى توضيح..

ـ كلنا خائفات..

وفجأة حضر شيخ القبيلة «علي زيد زيدون» بوجه مُكْفَهِرٍّ، كان المطوع يقف بين الناس يشرح لهم ما حدث. وصاح شيخ القبيلة في غضب وتوتر:

ـ أنت تتصرف يا مطوع كالصبية..

ـ لم أخطىء..

ـ أتفضحني على مَلأ من الناس؟؟

ـ لقد أزعجني ما حدث فقدتُ السيطرة على أعصابي..

ـ كان أحرى بك أن تأتيَ إليَّ أولاً..

ـ مريم ابنتنا جميعاً.. والكارثة تعمُّ الجميع..

ـ لا تدافع عن خطأ جسيم وقعت فيه، لا فائدةَ من التبرير.. أحنى المطوع رأسه، وتمتم:

ـ آسف.. كان يجب أن أقصدَك أولاً.. وصاح شيخ القبيلة في غضب..

ـ انصرفوا جميعاً إلى بيوتكم، وليبقَ هذا الأمر طيَّ الكتمان، حتى لا يشاعَ في القبائل المجاورة.. ودعونا نتصرف بهدوء وَرَوِيَّة..

انصرف الناس، وأقبل الليل بقمره الهادىء، فكسا الوجود بوشاح فضيٍّ قاتمٍ، وجلس «علي زيد زيدون»

وحيداً مسنداً جبهته على إبهام يده اليمنى، سابحاً في أفكار شتى مزعجة. وخيالاتُ الدَّمِ تلعب برأسه، وتلهب جسده، لكن العجوز قدمت إليه وقالت:

ـ فيمَ تفكر؟؟

ـ في العار..

ـ ربما يكون قد تزوجها على سنة الله ورسوله..

ـ ولماذا يتم ذلك في الخفاء؟ إنه لو حدث يثير الشبهات، ويجعل الناس يتحدثون بما لا يليق..

قالت العجوز في احتجاج:

ـ لقد رأيت الطبيب.. إنَّه أفضلُ ألف مرة من خميس والمطوع وعبد الله وأمثالهم.. والطبيب رجلٌ أصيلٌ.. ابن عرب..

قال شيخ القبيلة:

ـ لكنه غريب:

ـ لا غريب سوى الشيطان..

ـ ولماذا لم يأتِ إليَّ؟!

ـ ربما راوده الخوف..

ـ أنا أحبه..

ـ لكن الرجال هنا يكرهونه..

ودخل المطوع، وبعد فترة صمت، قال:

ـ لقد فكرت جيداً يا علي.. لا بد من إخبار الشرطة في دبي.. لن تستطيع السفر إلى بيروت ولبنان واسِعة لن نستدل عليهما.. الشرطة هنا تستطيع أن تتخذَ الإجراءاتِ اللازمة لردِّ ابنتك إليك..

قال شيخ القبيلة:

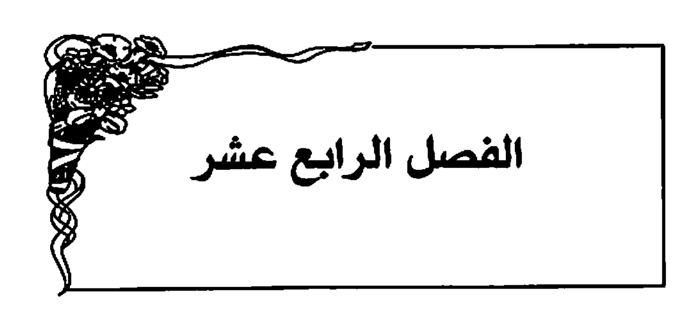
ـ إخبار الشرطة يشيع النبأ، ويجلب مزيداً من العارِ، ثم ماذا يكون الموقف لو أبرز لهم الطبيب وثيقة زواجٍ رسميةٍ؟؟

قال المطوع في غيظ:

ـ زواج؟؟ هذه كارثة..

ـ حسناً. فلنفكر بهدوءٍ، ولا تقدم على أيِّ تصرف دون أخذِ رأيي.

***



الفصل الرابع عشر

كانت مريم تقضي أيامَها، وكأنّها في حلم رائع جميل، طرحت وراءها نوازع الخوف، وهواجس التردد أصبحت، وكأنَّ الحبَّ الذي تنعم في ظلاله حصن حصين، وكان قلبُ زوجها أثمنَ ما تملك، وأضفى الزواج على علاقتها معي سمةَ الشرعية والاطمئنان، ولم يعد الوضع يبعث على القلق أو الضيق، وأخذت تنطلق معي في جميع الأنحاء، يوم في «بعلبك» وآخر عند منابع نهر الليطاني حيث نجلس في كوخ صغير، نشوي اللحم، ونأكل ونشرب في شهيَّة وسعادة، وكانت تقبل على الفواكه الطازجة، وتجري وتلعب في انطلاق، ثم نذهب إلى «سِنِّر» ونصعد الجبل حيث الجو شديد البرودة أو نميل على «زحلة» ونجلس في الكازينوهاتِ الجميلةِ ذاتِ الألوان، ونأخذ الصورَ التذكارية، وأخذت تألف الجو رويداً رويداً، واستطاعت بمساعدة بعض السيدات اللاتي كنا نلتقي بهن أن تتدرب على استعمال أدوات التجميل، وطريقةِ تصفيف

الشعر، كنت أريدها كما هي دون أن تتناول جمالها بالصنعة، لكنها كانت تتلهف على كلِّ جديدٍ، فتركتُ لها الحريةَ كي تمارسَ التجربة، بل واشتريتُ لها الكثيرَ من الملابس الحديثةِ، وقد استغرقت بعض الوقت حتى تعودت عليها، وكانت تحافظ على ملابسها الحديثة أثناء وجودنا بالمنزل ولا تخلعها سعيدة بها، مما كان يؤثر على انطلاقتنا، وأحياناً تبدو لها هذه الأشياء كلعبةٍ جميلةٍ أمسكت بها يدُ طفل ويأبى التخلي عنها، ويُضحي بكل شيء في سبيلها، لا أنكر أنني قضيتُ في تلك الفترة أجملَ أيام حياتي على الإطلاق ولا أنكر أيضاً أنني أحياناً كنت أفكر في المستقبل.. إنني لا أستطيع أن أعادي قبيلةً كبيرةً كقبيلة «علي زيد زيدون» ولا يمكن أن أتحدى التقاليد العريقة التي تعيش القبيلة تحت عبئها لسنين بل لقرون طويلة، وإذا نما الأمرُ إلى مسامع رئاستي فإنَّها قطعاً ستثور، لقد أتيت لكي أعمل كطبيب ولم آتِ لأُثيرَ الزوابعَ، وأسيء - حسب ظنهم - للمجتمع الذي أسعى لخدمته، وسيستقبل زملائي الأمرَ أيضاً بكثير من التعليقاتِ المُرَّةِ والنكاتِ الساخرةِ أنا أعرفهم جيداً، وسيكون زواجي مادةً غنية للتسلية والهزاء، ومع كل ذلك فأنا أحاول أن أهرب من هذه الأفكار أو بمعنى آخر أؤجل هذه الهموم حتى يحينَ موعدُها «غداً يظهر الغيب، واليوم لي».. هكذا يقول الشاعر العظيم عمر الخيام.

تمطت مريم ذات أصيل، وهي ترمق الشمس الغاربة من فوق قمةِ الجبل، وكانت ترتدي فستاناً اختلطتْ فيه الألوانُ الحمراءُ والسوداءُ، ثم قالت:

ـ ما أسعدني!! الدنيا كلُّها لي.

ـ يا لها من أيام حلوة..

قالت: لو مت بعد ذلك، لما أسفت.. لقد نلت كل ما تشتهيه نفسي.. لكني في الحقيقة أودُّ أن أعيش.. أعيش للأبد.. دون أن يتقدمَ بي العمر.. ثم استدارت إليَّ قائلة:

ـ هل يمكن أن يمتدَّ حبنا هكذا في الجنة..

ـ في الجنة يا مريم، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر..

ـ يا إلهي.. لسوف نسعد أكثر، ففيم الخوف إذن؟

إنها طبيعة الحياة يا مريم..

ـ الناس يفسدون كلَّ شيء بخوفهم..

ضممتها إلى صدري، قائلاً:

ـ آه يا فيلسوفتي الغالية..

ـ لا أعرف الفلسفة.. ولكني أقول ما أشعر به..

ـ ذلك أسمى مراتب الصدق والفلسفة. .

ـ عندما تضمني إلى صدرك، ذلك أثمنُ شيء في الوجود. . نفرت مني وهتفت قائلةً:

ـ عِدني بأننا سنبقى هكذا حتى الموت. .

ـ أعدك يا مريم. .

ابتسمت، وهامت بنظراتها الفيَّاضة بالحب والحياة في العالم المسحور من حولنا، وأخذت تغني، ثم اختطفت واحدة من التفاحاتِ الموضوعةِ على السور في طبق بلوري وأخذت تأكل منها. ثم تقربها من فمي لأقضمَ أنا الآخر، كنت ألبَسُ «الروب» لاتقاءِ البردِ، واضعاً يديَّ في الجيوبِ ثمَّ أشعلت سيجارة، وأخذت أنفث دخانها في سعادةٍ، وشردتُ بضعَ دقائق، ودخلتْ هي ثم خرجت ووجدتني أقول:

ـ لقد فكرت يا مريم، وقررت شيئاً سوف يثلج صدرك تماماً، ويحمي سعادتنا من العواصف.

قال متلهفاً:

ـ سوف أرسل إلى أبيك خطاباً أضمنه كلَّ شيء. . أعني أني سأخبره بأننا قد تزوجنا على سنة الله ورسوله، وسأرسل له نسخة من وثيقةِ الزواج. .

صمتت برهةً وهي تفكر، ثم ألقت بنفسها على صدري وقالت:

ـ عظيم . .

ـ ألن يغضب . .

ـ على العكس تماماً . . سوف تزيل عنه الكثير من الهواجس والهموم، وسيواجه الحاقدين بدليل الشرف والعفاف. ولن يجرؤ أحدٌ بعد ذلك على اتهامي أمامَه . .
قالت في تمعن:

ـ لكن لا تنسَ أن الأمرَ تَمَّ دون أخذِ رأيه.

ـ أعرف . . لكنه أفضلُ بكثير من أيٍّ وضع آخر.

واختطفت تفاحة أخرى، وقضمتها في حماس، وقالت:

ـ أبي ليس جامداً كما تتصور . . الجميع يعرفون عنه حسن الرأي والروية . . أليس شيخاً للقبيلة؟؟

ثم نظرت إليَّ بعينين يشعان ثقةً وذكاءً، وقالت:

ـ وهو يحبني أعنف ما يكون الحب . .

ـ أنتِ تجعلينني أشعرُ بالغَيْرَةِ منه.

قرصتني في كتفي قائلة:

ـ الحب أنواع.

شعرت بارتياح بالغ، ولأوَّل مرةٍ أحسُّ أن الأمر

بسيط غاية البساطة وأنه لا يخرج عن كونه عملاً عادياً، مجرد اثنين تحابا فتزوجا، ومريم ليست قاصراً، والوضعُ الآنَ أفضلُ من أيِّ وضع آخر لم يتوِّجه الزواج، ثم قال:

ـ أتعلمين يا مريم أنني فكرت في ترك عملي.

هتفت في رعب:

ـ يا للكارثة!! كيف تعيش؟؟

ـ لن أعيش بدون عمل طبعاً..

ـ لا أفهمك..

ـ فكرت أن نذهب للعمل في السعودية أو أيِّ بلد آخر..

ـ لكن.

قاطعتها قائلاً:

ـ رجلٌ مثلي بلا وطنٍ يستوي عنده العمل في الشرق أو الغرب.. أنا مجرد لاجىء.. أتعرفين؟؟

قالت دون اقتناع:

ـ المهم أن نكونَ معاً. وأن نجدَ لقمةَ العيشِ..

ـ هذا صحيح..

ـ انطلق إلى أيّ مكان.. فأنا معك.. أيّ أرض

تستقر فيها فهي أرضي.. خُض البحارَ.. واصعد الجبالَ.. واعبرُ الصحارى.. شرِّقْ وغرِّبْ أينما شئت.. فأنا جوارك يا نور عيني..

قلت وروعة الأصيل تسكر خيالي.

ـ معنا الحب.. فلن يخذلنا الله.

ـ لم أعد أكره أحداً يا حبيبتي..

ولا أدري لماذا قلت هكذا فجأة:

ـ وعبد الله؟؟

بان الضيق في عينيها، هي تعرف أنني على علم بعلاقتها القديمة معه، ولا شكَّ أنها تتذكر يوم أن هربت من المستشفى وذهبت معه إلى السينما، قالت:

ـ لم يكن حباً.. كان وهماً..

ـ لكنك كنت تريدين الزواجَ منه..

خفت أن تنفجرَ باكيةً، لكنَّها قالت متماسكة.

ـ إنَّه أتفهُ من أن تفكرَ فيه..

ـ لكنك تمسكت به زمناً..

ـ ذلك زمن الطفولة.. لم تكن أنت قدمت بعد..

قلت في شيء من الضيق:

ـ مجرد عثرات في الطريق. .

استبدَّ بها الغضب وهتفت:

ـ لم أعثرْ ـ لم أعطِهِ شيئاً. . كان أداةً من أدواتِ التمرد ضد إرادة والدي. . كان الوسيلة التي أرفض بها القهر. . وحقيقة لم يكن هناك أفضل منه آنذاك في تصوري. . وأقبلت نحوي، وأحاطت عنقي بذراعها، ثم انتزعت السيجارة من بين شفتي ورمتها بعيداً، وقالت:

ـ لم يكن البدر قد أشرق في ليل حياتي. .

ولصقت خدها بخدي، ثم همست في أذني قائلة:

ـ ألا تشعر بي؟؟

***

ـ هذا عارٌ لا يمحوه إلا الدم. .

كلماتٌ خطرة أخذ يرددها المطوع حسن بن محمد، ويسكبها في أذن خميس، ويغري بها عبدَ الله، وينشرها بين رجالِ القبيلة ونسائها.

لكن ما السبب الذي جعله يقول هذه الكلمات؟؟

لقد حدث أمر هام، أرسلت خطاباً إلى علي زيد زيدون شيخ الشحوح عن طريق أحد الأصدقاء والمخلصين، وتضمن الخطاب أنني قد تزوجت ابنته مريم على سنة الله ورسوله، وأرسلت إليه صورة طبق الأصل من

وثيقة الزواج الشرعية كنت أعلم أنه ليس هناك حلٌ غير ذلك، وكانت نقطة الضعف الوحيدة في موقفي هو أني تزوجت دون استئذان شيخ القبيلة، وحضوره مراسيم الزواج بنفسه، واعترفت له في خطابي بهذا الخطأ، وقلت منهياً خطابي: «لكني على يقين أنك سوف تقدر الظروف يا شيخ علي، وتغفر لنا هذه الهنات، وتبارك زواجنا الشرعيَّ وسأدفع الصداق الذي تريد، وأن زواجاً تمَّ على سنة الله ورسوله، لهو أمر يثلج القلب ويردُّ الاعتبار، ويخرس ألسنة الفتنة، ويكفي أن نكون أنا ومريم نعيش في سعادة كبرى، ولا ينقصنا سوى رضاك عنا، وعطفك علينا».

ودهش علي زيد زيدون لقراءة الخطاب، كان سعيداً وكان حزيناً، أيسخط أم يرضى؟؟ أيعلن الأمر أم يُخفيه؟؟ القصةُ منذ بدايتها محيِّرة ومثيرة.. هروب.. بحث.. ابنة شيخ القبيلة لغط كثير.. زواج. سفر إلى الخارج. وشايات كل هذه الأشياء تشكل حدثاً مروعاً يبعث على البلبلة، والضيق، ويوحي بأمور غير طبيعية لا تتفق وتقاليد القبيلة، ولا تنسجم مع وضعِ شيخِها ومركزِه الكبير، كنت قد أرفقت بخطابي بعضَ الصور الفوتوغرافية لي ولمريم في أماكن شتى، تناول علي زيد زيدون هذه الصورة وأخذ يتفحصها وقلبه يدق.. ووجهه يحتقن بالدم، الحورية الجميلة في ثيابها الملونة تبدو وكأنها هبطت من الجنة،

وليست هي مريم التي يعرفُها، وأنا تحت نظراتِه أبدو سمحاً طيباً لا مجال للعيوب الظاهرية فيَّ، وأطال الرجل النظر في الصور. ثم ابتسم.. ثم ضحك.. مريم أصبحت عروساً.. وتزوجت طبيباً.. وشقت عصا الطاعة.. وظل يضحك.. ووثب إلى ذهنه صورة خميس ابن أخيه.. الفرق شاسع.. ثم صورة عبد الله.. المقارنة مضحكة.. وأخيراً صورة المطوع حسن بن محمد غير معقول.. أكانت ابنتي على حق حين رفضت، وحين اختارت؟؟ ثم، ألها الحق في أن ترفض وأن تختار؟؟ أهي على صواب أو سقطت في خطأ بالغ؟؟ أعتقد أنها لو أباحت لي بسرها منذ البداية لربما حبذت رأيها ووافقت على زواجها من الطبيب.. إنها أهلٌ لرجل عظيم.. ما كان يجب أن تتزوج إلا شيخاً من عظماء الشيوخ، أو فتى من ذوي المراكز العالية.. هذا أمر أؤمن به أعمق الإيمان، أكاد أقول إنني أشعر بالسعادة، وإن ابنتي أصابت في تصرفها واختيارها لولا أنها أبرمت الزواج دون استشارتي..

وعلى الرغم من صلابة علِيّ وتشبثِه بالعرف والتقاليد إلا أنه واجهَ الواقع بعقلٍ متفتح، البنت تزوجت.. وهي ليست قاصراً. فماذا أمامي أن أفعل؟؟ هل أفصلُ بينها وبين زوجها، ذلك تصرفٌ مضحك، هل أقتلُها؟؟ قلبي لا يطاوعني.. هل أقرر الأمر الواقع وأباركه؟؟

إنني أشعر حيال ذلك ببعض المرارة والضيق.

وتنهد علي في شيء من الحسرة، ثم توجَّهَ إلى صاحبي قائلاً: سوف أردُّ على خطابه في أقرب وقت..

عاد عَلِيٌّ إلى الجبل، الأصيل يزهو على القمم، والجوُّ يميل إلى الحرارة، وبعض الزروع الخضراء تتناثر هنا وهناك، كان المطر في آخر الموسم غير قليل.. والشياه والماعز والإبل تنطلق في مسرح، والصبية يلعبون حفاةَ الأقدام.. والمطوع واقفٌ عند مدخلِ الحيِّ يرمُقُ الطريق بعيني صقر..

- ها قد عدت أخيراً يا علي..

لم يرد ومضى في طريقه ممتلىء الرأس بالأفكار المتزاحمة، وتمتم المطوع:

- لماذا لا تتكلم؟

قال عَلِيٌّ وهو يرمق النخيلَ المخضرة:

- عندما ينضج الثمر ولا نعجل بجنيه يتساقط.

- هذا كان رأيي دائماً.. قلت لك زوِّجها لي..

نظر إلى المطوع نظراتِ ذاتَ معنى، وقال:

- لقد تزوجت مريم..

ـ كيف؟

ـ فاز بها الطبيب.

قال المطوع وقد اكفَهرَّ وجهُهُ.

ـ هذا عارٌ لا يمحوه إلا الدم..

ـ طأطأ عليٌّ رأسَه قائلاً:

ـ أحياناً لا يمحو الدم شيئاً، بل لا يكون سوى حماقةٍ وشقاءٍ ومزيدٍ من القذارة..

ـ هذا منطق تأنف منه القبيلة..

ارتجف عَلِيٌّ في غيظ، وقال:

ـ أنت رجلُ دين، والبنت تزوجت على سنةِ الله ورسولهِ..

ـ إنها تخدعُك..

أبرز عليٌّ وثيقة الزواج قائلاً:

ـ تلك هي الوثيقة..

قال حسن وهو يتفحص الوثيقة، وكان الخبثُ واضحاً في نبراته:

ـ وماذا حدث قبل الوثيقة..

صاح الشيخ عَلِيٌّ في حِدَّة:

ـ أقصر يا حسن.. ولا تتهمني في شرفي.

قال المطوع ساخراً:

ـ أيُّ شرف، وقد تزوجت دون مشورتك، بعد أن هربت من بيتك، وَجَرَتْ وراءَ الغريب!!

أنسيتَ أنك وعدتني بالزواج منها؟؟

ـ كان يجب أن نؤمنَ بأنها إنسانة ولها رأيُها.

ـ هذا كلامٌ جديدٌ لم نألفه..

ـ الدين يقول ذلك..

زمجر حسن في غيظ.

ـ لا تتكلموا في الدين، إنكم تُحَكِّمُوْنَهُ في الوقت أو الموقف الذي يروق لكم.. الدين هو ما أقوله أنا..

كظم عَلِيٌّ غيظَه قائلاً:

ـ وماذا تقول أنت؟؟

ـ أقول إنه عار لا يمحوه إلا الدَّمُ..

ـ ليس هذا منطق الدين، لكنه منطقُ الحقد.

ـ إني أعترض..

ـ الأمر يخصني ويخص ابنتي..

ـ لكنك شيخنا.. شيخ القبيلة.. نحن وحدة واحدة..

ـ الزواج في القبيلة رغبةٌ حرة..

ـ هل هذا إعلان جديد.

ـ هو الواقع..

ـ أنت تستسلم للهزيمة..

ـ إن ما أفعله هو عين الصواب..

ـ إنك تعالج أخطر مشكلة بالاستسلام لها..

ـ انتهى ولسوف أستقبل ابنتي هي وزوجها هنا في الجبل وسنقيم الأفراح أسبوعاً كاملاً.. وسأدعو القاصي والداني فلم يسبق أن تزوجت امرأةٌ من الشحوح طبيباً عربياً.. هذا فخر للقبيلة وأنا سيِّدُ القبيلة.. وأنا راضٍ عما تم بكلِّ ملابساته.. ولن يستطيع كائنٌ ما كان أن يقنعني بسفك دم مريم.. نظر إليه حسن نظرةً قاسيةً وقال:

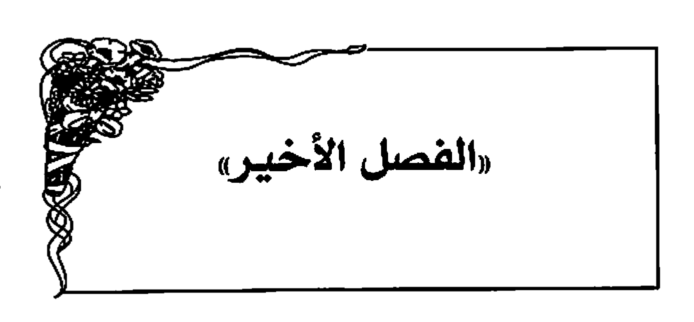
ـ كنت في مطلع شبابك أكثر غَيْرَةً وشجاعة، أدرك علي زيد أن المطوع يلمح إلى قتل أم مريم منذ سنوات بسبب سلوكها ففار الدم في شرايينه وصرخ:

ـ انصرف أيها المطوع.. انصرف وإلا سفكت دمك أنت!!

واستدار المطوع منصرفاً، وهو يتمتم:

ـ هذا يومٌ له ما بعده..

❋ ❋ ❋



«الفصل الأخير»

القبيلة برَغْمِ التزامها بالتقاليد القديمة، وتميز أداة الحكم فيها بالصرامة والقوة، إلا أن هناك جانباً هامّاً لا يمكن إنكارُه، وهو أن أيَّ فرد فيها يستطيع أن يقابل شيخَها، وأن يخاطبَه باسمه المجرد، وأن يُبديَ رأيهَ في أيِّ مشكلة عارضة، بحرية تامة ودون تحرج، ومع ذلك فإن قراراً ما عندما يصدر تكفُّ الألسنةُ عن النقاش ويصمت الخلاف أو هذا ما يجب أن يكونَ وقد لا يقبلِ الأفراد ذلك القرار إلا أنهم غالباً ما يرضخون له، وربما يتحول رضوخهم المبدئي إلى ثورة وتدبير فيما بعد، وهذا نادراً ما يحدث، وقد يكون رأيُ شيخ القبيلة بَيِّنَ الخطأ إلا أنه يمضي فيه ولا يتردد ويعتبر التراجع ضرباً من الهوانِ والضعفِ لا يليقُ به.

ولقد انتشر نبأ زواج «مريم» في أنحاء الحيّ، ولم يحجم أحدٌ من الواعين عن الإدلاء فيه بدلوه.. وفي اليوم التالي ـ يوم الجمعة ـ صعد المطوع حسن بن محمد المنبر،

ولم يستحضر معه في هذه المرة الأوراق الصفراء القديمة أو المخطوطات البالية، التي تعوَّد الناسُ رؤيتها في يديه كل أسبوع، ولكنه أحضر كراساً صغيراً يبدو أن كلماته قد كتبت حديثاً، ولم تكن الخطبةُ مرتبطةً بمناسبة دينية كما كان يحدث دائماً، بل كانت نسقاً جديداً تماماً، إذ تناولت الحدث الهام الذي يشغل أذهان الناس، تكلم المطوع عن هذا الزمان وفساده، والظواهر الخطيرة التي انتشرت في كل مكان بالجبل، مثل تسلل الراديو إلى الجبل وهو أداة إفساد بما فيه من أغانٍ وأنغامٍ وأصواتٍ نسائيةٍ وعن الصور الخليعة التي تحملها بعضُ المطبوعات الحديثة وعن بعض الشباب الذين يتسللون خِفْيَةً إلى دار السينما في رأس الخيمة، ثم تحدث الخطيب عن علامات الساعة، وعن البلاء الوشيك الوقوع.

وعن الجيل المتمرد الذي يعصي الوالدين، ولا يراعي أوامر علماء الدين، ولا يتبعُ سنةَ رسول الله، ثم تكلم بحماس واضح عن فساد الحكام والأمراء والملوك مؤكداً أن تأثير الحاكم قد يكون أقوى من تأثير المبادىء وفساد الناس، ثم انتفض المطوع صارخاً من فوق المنبر، وقال:

ـ إنني أحذرُ شيخ القبيلة من بلاءٍ متوقعٍ وسخطٍ نازلٍ ما لم يتدارك الأمر، ويعصم الناس من الفِتنة، وإلا شق

نساؤنا عصا الطاعة، وجَرَيْنَ وراء الرجال دون حياءٍ أو خجل، وأصبحنا مضرب الأمثال في الضعة والخور بين القبائل العربية المجاورة.. وقد أعذر من أنذر..

وساد الهرج والمرج داخل المسجد الصغير، وشعر علي زيد زيدون بضيق وكرب شديدين، لكنه احترم المسجد، وأدى الصلاة، ثم وقف وسط المسجد، وأمر الناس بالبقاء في أماكنهم، وقال متماسكاً:

... لست من علماء الدين، ولكني أب للجميع، ولن أفتي فيما لا أعلم، وكنت أتمنى ألا يخرج هذا الأمر عن دائرته الصغيرة.. وقد سألتُ أحدَ العلماء الكبار في رأس الخيمة عن قول الشرع فيما حدث.. فأكد لي أن للفتاة الحقَّ في إبداء رأيها عند اختيار زوجها وروى لي قصة عن امرأة تسمى «بريرة» على عهد رسول الله أراد لها الرسولُ أن تتزوج من رجل يُحبها لكنها لا تحبه، ورفضت الزواج، فأقر الرسول ﷺ رغبتها في ذلك.. وقال لي العالمُ الكبيرُ وهو موفد من الأزهر الشريف، أن علماءَ الإسلام مجمعون على إعطاءِ البنت البالغةِ حريةَ الاختيار..

انتفض المطوع كمن لدغته حيَّةٌ وهتف:

- لا تتكلم في الدين يا علي..

- إنني أنقلُ رأيَ عالم لا رأيي أنا..

ـ إن تقاليدنا لا تخرج عن قواعد ديننا يا علي. .

ـ لا. . إن هناك أموراً كثيرة نمارسها ولكنها تخالف الدين.

ـ إنها الفتنة بعينها يا علي. .

ـ أنت الذي تثيرها. .

ـ أنا أقول الحق، والناس يفهمون. .

وساد اللغطُ مرة ثانية، وقال شيخ القبيلة:

ـ لن أسمح بالتمادي في الفوضى.

ـ لن تستطيع أن تمنعني من قول الحق. .

ـ تتكلم كثيراً عن الحق ولا تفهمه. .

ـ أنا معترضٌ على كلامِك. . إنك تهينني. .

وسادت لحظة صوت متوترة، وتقدم منه علي زيد زيدون وقال في قوة وإصرارٍ:

ـ لا بُدَّ أن ترحل عن هذه الديار يا حسن بن محمد. .

ـ هذه أرضي. .

ـ أنت تحرق أمنها. .

ـ ليس لك فيها أكثر مما لي. .

ـ هذا حكم الله. . وقد أمرتُ بنفيك اتقاءً للفتنة، ولأنك تعديت حقوقك. . فلتأخذ نساءَك وأولادَك ولترحل. .

ساد الصمتُ من جديد، نظر المطوع إلى الناس، وكأنه يطلب الحماية والتأييد، لم يتحرك أحد، هناك من يؤمنون به ويثقون فيه، لكن القضية المطروحة حساسة، ومنطق شيخ القبيلة كان قوياً مقنعاً، والناس يعرفون أنه كان يطمع في مريم، وهم يوجسون خيفة من ترك المطوع لهم، ويعتبرون ذلك بدايةَ شرّ، ذلك وهَمٌ قديم متأصل في سلوكهم وفكرهم. . أما وقد حدث الصدام بين المطوع والشيخ، وقد كانا لسنواتٍ طويلةٍ صديقين متفقين في الرأي فلا بُدَّ أن يختار الناس، الحاكم أو المطوع، وهذا اختيار صعب، الحاكم هو السلطة الدنيوية التي بدونها لا تستقيم أحوالهُم، والمطوع هو السلطة الدينية التي بدونها لا يستقيمُ شأنُ الدنيا والآخرة، وأدرك علي زيد زيدون الأمر، فقال:

ـ أنت يا حسن لست الدين. . ولستَ الممثلَ الوحيدَ له. . في الجبل وخارج الجبل عشراتٌ من العلماء الأنقياء. . وسترحل عن الجبل، وسيأتي غيرُك من الشحوح أنفسهم. . سيظلُّ أمرُ الدين والدنيا على خير حال. . ولن نفرط في حق من حقوق الله. . فلتنصرفوا جميعاً. . ولقد أصدرت أمري وليأوِ كلُّ واحدٍ إلى مسكنه. .

وذهب جماعةٌ من «المطرزية» ـ حرس الشيخ ـ وحثُّوا المطوع على الرحيل وسرعان ما أعدَّ إبِلَهُ وشَاءَهُ، وجمع أهله وهَمَّ بالرحيل، وهو يقول:

ـ الويل لكم يا أبناء الشحوح..

ردَّ عليه أحد الحاضرين القلائل:

ـ هل هناك ويلٌ غير الذي نعيش فيه؟؟

ـ أيُّها الكفرة..

ـ نحن نؤمن بالله ورسوله وكتابه..

ـ شقشقة لسان..

ـ الحق ليس في جانبك يا مطوع..

ـ أتجرؤ على مناقشتي؟؟ من أنت؟؟؟

ـ إنسان يعرف الله.. ويعتصم بالحق دون أن أعرف القراءة أو الكتابة. قال المطوع وهو يمتطي حمارَه:

ـ فلتنصب عليكم صاعقةٌ مثل صاعقة عاد وثمود.. ولتحرقكم نار أهل الأخدود، وَلْتَسِرْ فضيحتكم على ألسنةِ الناس في كل الوجود، لستم أهلاً للخير، بل عُصْبَة للشر، وستقع على رؤوسكم كل ألوان البلاءِ والضر..

ـ كلامُك جميل.. لكنه لا يدخلُ إلى قلبي..

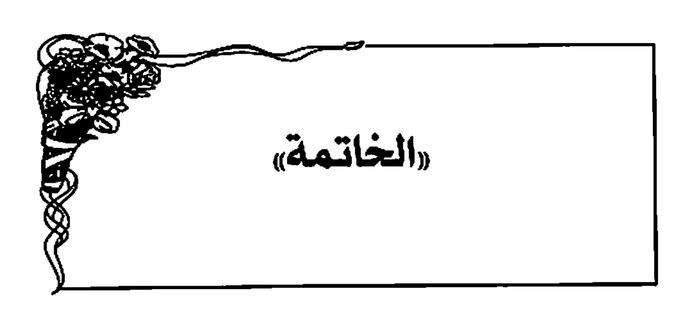
ـ إن غداً لناظره قريب . .

وبعد سفر المطوع، انكسرت حِدَّةُ المعارضة تماماً، ولم يعد بين الناس العاديين من يؤمن بأن الدم يغسل العار، ويمحو الفضيحة، وأصبحت قضية مريم وقضيتي شبهَ منتهية، ورأى الناس بمرور الأيام أن الأمر ليس فيه كبير شذوذ واحترموا مشاعر شيخهم ولم يعودوا يلوكون سيرةَ ابنته كثيراً، وإذا تحدثوا فإنما يتحدثون عن مريم زوجة الطبيب لا الهاربة المتمردة، وأصبح الموضوع حافلاً بالطرافة والإثارة، وأصبح أيضاً مرتعاً خصباً لخيال المراهقين والمراهقات، ولعلَّ الكثيرات كن يتمنين أن تساعدهن الأقدار في الحصول على رجل كرجلِ مريم، وقصة زاهية الألوان، منمقة التفاصيل، مليئة بالتشويق، غنية بالأحداث كقصة الجميلة ـ مريم ابنة علي زيد زيدون ـ بل وأصبح بعضُهن يشددن الرحال إلى المراكزِ الطبيةِ المختلفةِ ظناً منهن أن الزمن قد يعيدُ القصة مرةً أخرى . .

أليست قصةً مُغْرِيَة؟؟

ألم تُثِرْ الحماسةَ والحيويةَ في قلبِ الأرضِ العجفاءِ ذاتِ القيظِ والجفافِ والصبرِ المريرِ؟!.

❋ ❋ ❋



«الخاتمة»

امتدت أيامُ الصفو الحالم، ونعِمْنا بسعادةٍ حقيقية دون خوفٍ، كان كلُّ شيءٍ يبدو جميلاً لا تشوبه شائبة، وقررنا العودة، وأخطرنا شيخ القبيلة بالموعدِ المحدَّدِ ولكن مريم عند السفر كانت مرتبكةً بعضَ الشيء، وكانت تردد:

ـ تمنيت أن نبقى هنا أبدَ الدهر.

ـ الجنة يا حبيبتي مثواها القلب، خلف الضلوع، والجنة يا حبيبتي معنى علوي ترافقنا أينما رحلنا.. في الأرض الخضراء.. أو في البقاع الخراب.. في الأرض أو في السماء.. وأنا لا أخاف الرحيلَ.. والزواج ليس جريمة، فلنواجه الحياة، وأبوك قد أكد لنا رضاه وموافقته.. وأنا أثق فيه..

همست في شرود:

ـ أخاف العيون.

ـ ماذا؟

ـ سينظرون إليَّ نظراتٍ خبيثة..

ـ هذا وهْمٌ يا حبيبتي..

ـ أنا أعرفهم.. عشت بينهم سنين طويلة..

ـ حبّنا يقهر الوساوس..

ـ لكنه لن يخنق همساتِ الحاقدين، أو يقضي على نظراتهم المؤلمة..

ـ لن تبقى بينهم طويلاً..

ـ استعنت بالله..

وحملتنا الطائرة إلى دبي، وقضينا في بيتنا ليلةً واحدة، ثم استأنفنا المسير في اليوم التالي إلى رأس الخيمة وكان يوم جمعة، ورافقني بعضُ الزملاء الأطباء مشاركة في الأفراح، وتشوقاً لزيارة الشحوح، وأتى أيضاً بعض زوجاتهم، ولقد قررنا العودةَ في المساء، وعندما بلغنا جبل الشحوح كان مشهداً رائعاً لا يُنسى، كلُّ شيء كان على النقيض تماماً مما تصورت مريم، السعادة تغمر الوجوه، والتشوق ينبعث من العيون، يبدو أنهم نسوا كلَّ معنى سيء خلف الأحداث، فرصة صبيانية صادقة، وعلي زيد زيدون برغم شحوب وجهه كان يبتسم ابتسامةً عريضة، ويرفع هامته متحدياً، احتضنني في وُدٍّ، واحتضن زملائي، وقفت أمامه مريم منكسةَ الرأس، والبرقع التقليدي على وجهها

وعيناها تبرقان في قلق، قبَّل رأسَها، وربت على كتفها، ووجهها إلى داخل المسكن ونحرت الذبائح، وانطلقت الأغاني الجميلة.. أغاني الجبل العريقة.. وامتلأ الأفق بطلقات الرصاص.. لكن صيحات ملتاعة تناهت إلى أسماعنا.. ماذا جرى، وهرولنا.. كانت مريم ملقاةً على الأرض تنزف دماؤها وتقول في ألم يمزق القلوب:

- ألم أقل لك؟؟ كان يجب ألا نأتي إلى هنا.

كان خميس ابن عمها يقف وقد أمسك به عدد من الرجال، وتشبثوا بغدارة في يده، وهو صامت لا يتكلم، وصاح علي زيد زيدون:

- هل فعلتها أيها النَّذل؟

ووقفتُ مشدوهاً لا أكاد أصدق ما أرى أمامي، في لحظات تبدل كلُّ شيء، ماتت الفرحةُ، وعَمَّ الفزع، واستلقت مريمُ تئن، وتشكو إلى الله بعيون دامعةٍ، وتمد يديها صوبي مستنجدةً، وفي غمار الدهشة والفزع انطلقت رصاصة أخرى.. ووجدتني أتهاوى زائغَ النظرات، واهنَ القوى، كان «عبد الله» يقف على مقربة مني وفي يدهِ مسدس صغير، وهاج الجبل وماج، وأمسكوا بتلابيب عبد الله.. اجتمع الغريمان على الانتقام منا، ولم أفق من غيبوبتي إلا بعد فترةٍ من الوقت، هأنذا أنام على سرير في

مستشفى رأس الخيمة، والدم ينتقل إلى وريد في ذراعي خلال أنبوبة رفيعة من البلاستيك.. قلت بصوت واهن:

- أين مريم..

كان علي زيد زيدون يقف هو الآخر مع زملائي الأطباء إلى جواري وقال الرجل بصوت أجش صارم:

- هي بخير..

- وقال أحدُ زملائي:

- الرصاصةُ لم تصب منك مقتلاً.. لقد أدت إلى عطبٍ بسيط في الكتف، وإن تسبب عنها نزيف كثير بعض الشيء.. كن مطمئناً تماماً..

قلت:

- ومريم؟؟ أخبروني بالحقيقة.

- لا أكتمك إن إصابتها بالغة، لكنها ستمرُّ بمرحلة الخطر بسلام.. لقد استقرت الرصاصة أسفل الرئة اليمنى.. وهي لم تنزفْ كثيراً.. ونقلناها إلى مستشفى دبي..

انسكبت دموعي على الرغم مني، وكان جسدي يرتجف كلُّه، وقال علي زيد زيدون بصوت أجش مرة أخرى:

ـ الرجال لا يبكون يا طبيب..

ـ أجل.. ولكنه غدر دنيء..

ـ سيكون العقاب رادعاً..

ـ لم نرتكب إثماً.. لقد تزوجنا..

ـ أعرف..

ـ ورصاصات الحقد لن تمنع التغيير.. لن تقتل إرادة الإنسان.. سوف تمضي الحياة إلى الأمام كما أراد لها الله.. ربما نكون قد ارتكبنا بعض الحماقات.. لكن ذلك لا يعني أن نموت وأن تداسَ عواطف الإنسان النبيلة.

تدخل أحد الأطباء قائلاً:

ـ أنت تعرف ما يجب في مثل هذه الظروف.. فلتكف عن الحركة والكلام.

ـ أشكركم..

يا إلهي!! ماذا أرى؟؟ ها هي فاتسالا تقف هناك محتقنة العينين، صديقتي الهندية.. وعندما وقعت عيناها عليَّ، خفضت رأسها..

ـ فاتسالا.. كيف أنت!؟

لم تجب، لكن أحد زملائي قال:

ـ لقد قامت بواجبها نحوك ونحو مريم على أروع وجه.. إنها ممرضةٌ ممتازةٌ.. يجب أن تشكرَها..

وانصرفت فاتسالا قبل أن أقولَ لها كلمة واحدة كنت قادراً على أن أتصور المشاعر العارمة التي تعصف بقلب «فاتسالا» المسكينة.. لها الله.. وتمتم علي زيد زيدون:

ـ أعرف أن المطوع وراء كل ما حدث.. هو الذي أثار الفتنة، وحرض على الجريمة.. وسأجتث جذور الفساد من الجبل، ولن أسمح للحقد أن ينفث سمومَه.. وسينال كلُّ مجرم عقابه..

قلت:

ـ لا جَدوى من الغضب.. لقد أراد الله خيراً.. وكيف تركت مريم وحدَها.. قال علي:

ـ لقد ذهب معها أحد الأطباء..

لم تستطع الرصاصة الغادرة أن تجهز على الفرصة المقدسة في قلبي وفي روحي، آه.. آفة البشر التعساء.. الأنانية.. لقد كان خميس يريدها.. وكذلك عبد الله.. وكان المطوع يتمناها لنفسه.. فلتسل الدماء دون النظر إلى أشواق مريم المظلومة.. وبعد يومين نقلت أنا الآخر إلى مستشفى دبي.. كانت مريم قد تخطت مرحلة الخطر، وكانت تبتسم في رضا، قلت لها:

ـ ولِمَ تبتسمين؟؟

ـ ها نحن لم نمت.. لكن لماذا لا يضعون سريري إلى جوارك..

ـ للمستشفى قوانين يجب احترامها..

ـ لكنك زوجي..

ـ نعم.. سواء تجاورنا أو تباعدنا..

ثم أشارت بيدها قائلة:

ـ اقترب مني..

وفي أذني همست قائلةً:

ـ قال لي الطبيب إنني حاملٌ.. وإن الجنين لم يُمَسَّ بأذى.. وأخفت وجهها في الفراش، نظرت إليها..

كانت أجمل وأشهى من أيِّ وقتٍ مضى. في أعماقي موسيقى خيالية تعزف لحناً لم أسمعْ أروعَ منه، أشعرُ أنني أهيم وسط السحاب، وأسبح في الهواء الطلق بجناحين من نور.. وأرى نفسي أعبر الآفاق.. أرى الآكامَ أسفلَ مني.. الجبال.. البحار.. المدن.. القرى الصغيرة.. تمرُّ تحت جناحي كشريط للسينما.. وأنا أعانق القمر.. وأنا أحبُّ كلَّ الناس..

وأحب الغرباء خاصة.. وعندما تَمَّ الشفاء.. وعُدنا

إلى المسكن.. كان كلٌّ شيء على ما يرام.. وبعد يومين من استئنافي للعمل. استدعاني مديرُ المستشفى وقال:

ـ الجميع يتحدثون عما جرى.

ـ أعرف..

ـ وللمجتمع هنا مواصفات وتقاليد خاصة.

ـ أجل..

ـ نحن في حرج..

أدركت ما يعني المدير، ليس لكلامه معنى سوى أن أستقيل من عملي، لم يفتني الأمر، كنت أفكر فيه وأنا في لبنان، قبل أن تحدث الأحداث الدامية الأخيرة، وأجريت عدة اتصالات للبحث عن عمل في بلد عربي آخر، وقد كللت مساعي بالنجاح، لم أكن قلقاً، بل لعلَّ الانتقال إلى مكانٍ جديد أجدى وأخير بالنسبة لنا، قلت في هدوء:

ـ أشكرك.. وسأكتب استقالتي اليوم..

ـ ولك الحق في أن تستمر في عملك لمدة شهرين حتى تتدبر أمرك كما ينص العقد.

ـ لا أريد أن ألتمسَ الأعذارَ لما حدث.. وأنا مدركٌ لكافَّةِ الظروف المحيطة.. وذاتَ صباح، ولم تكن الشمسُ قد أشرقت بعدُ كنا نتجه صوبَ المطار في سيارة أجرة، أنا

ومريم وعلي زيد زيدون، بعد ساعة سوف تُحلق بنا الطائرة إلى البلد العربي الشقيق. الذي تعاقدت معه..

قال لي علي وهو ينظر خلالَ زجاج السيارة:

مريم أمانة في عنقك.. قالها في انفعال ظاهر، ثم استطرد:

ـ إذا شعرت يوماً أنك في غير حاجة إليها فلا تسيء إليها.. فلترجعها إلى الجبل.. الجبل ذو قلب حنون منذ آلاف السنين أحببناه وأحبنا ومريم قطعة منه.. قطعة من قلبي.. لقد أصبحت معك زهرة القبيلة.. وشهقت مريم باكيةً، بينما دمعت عينا الرجل الصلب الذي يأنف من البكاء، وشعرت أني أكاد أنهار لهول موقف الفراق، لكني تماسكت، وطوقت عنق مريم بذراعي، وقلت في حنان:

ـ مريم حياتي.. لقد أعطتني أروعَ ما في الوجود.. الحب والسعادة.. وساد الصمت فترة، ثم قلت:

ـ وسنحرص أن نقضيَ الإجازة السنوية معك كلَّ عام.. واستدركتُ قائلاً:

ـ وهو..

ـ ألا يكون في استقبالنا خميس وعبد الله.. ضحك الرجل وقال:

ـ هما الآن في السجن.. ولن أتوسط لإخلاء سبيلهما.. ذلك هو قراري النهائي، والمطوع هو الآخر لن يعود إلى القبيلة.. لقد مَلَّتِ القبيلةُ السحرَ والدَّجَلَ.. وسنرسل بأولادنا ليتعلموا الدين الحقيقي في أماكن أخرى.. وعندما تعودون ستجدون نمطاً جديداً من المطوعين.. وقلت وأنا أضحك:

ـ سنعود ومعنا طفلٌ صغير.. أليس كذلك يا مريم؟؟ وهمس الشيخ في انفعال:

ـ أحببتُك من كلِّ قلبي.. بل لعلِّي أحبك أكثرَ من مريم ذاتها وتنهد في ارتياح.. لقد عاد الهدوء إلى الجبلِ، وصارت مريمُ حكايةً حلوةً؟ يرويها النسوةُ في الليالي القمرية، وينشدها في أزجال صريحةٍ مُعَبِّرةٍ أولئك الشعراءُ الشعبيون، كلمحة من أشهى وأمتع ملاحم الجبل حيث تنتشرُ قبائلُ الشحوح..

تمت